حائز جائزة نوبل للآداب

جان ماري غوستاف لو كليزيو

بتنا

فتاة تحت سماء سيول

ترجمة: ريتا م. البستاني

مكتبة

رواية

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

بتنا

فتاة تحت سماء سيول

مكتبة
t.me/soramnqraa

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.
ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.

الجناح، شارع زاهية سلمان
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥ - ١١ بيروت، لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١ ٩٦١+
email: publishing@all-prints.com
tradebooks@all-prints.com
website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠٢١
ISBN: 978-6144-58-549-8

Originally published as: **Bitna, sous le ciel de Séoul.**
Copyright © Editions Stock, 2018.
All rights reserved.

Avec le soutien du
CNL

تدقيق لغوي: حسين إبراهيم
تصميم الغلاف: ريتا كلزي
الإخراج الفني: فدوى قطيش
صورة الكاتب: Francesca Mantovani © Editions Gallimard

جان ماري غوستاف لو كليزيو

بتنا

فتاة تحت سماء سيول

ترجمة: ريتا م. البستاني

رواية

مكتبة
t.me/soramnqraa

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

المحتويات

أول قصة أرويها لسالومي نيسان/إبريل ٢٠١٦ ..... ١٩

القصة الثانية التي أرويها لسالومي، أيار/مايو ٢٠١٦ ..... ٣٩

القصة الثالثة التي أرويها لسالومي، تموز/يوليو ٢٠١٦ ..... ٦٧

تتمة قصة السيد شو والحمَام، آب/أغسطس ٢٠١٦ ..... ٧٧

قصة القاتل المتدرّب نهاية آب/أغسطس ٢٠١٦ ..... ٨٥

نهاية قصة السيد شو، نهاية آب/أغسطس ٢٠١٦ ..... ٩٧

قصة المغنية نابي التي رويتها لسالومي،
أيلول/سبتمبر ٢٠١٦ ..... ١١٣

قصة التنينين التي رويتها لسالومي
نهاية تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٦ ..... ١٤١

سالومي تعبر جسر قوس القزح داخل مستشفى سيفيرانس
نيسان/إبريل ٢٠١٧ ..... ١٦٣

لا بدَّ من أن نلتقي مجدَّدًا تحت سماء سيول.

(مثل سيولي)

مكتبة
t.me/soramnqraa

أنا بِتنا؛ في الثامنة عشرة تقريبًا من عمري. لست بارعةً في الكَذِب، فعيناي المشرقتان تَفضحانني فورًا. لون شعري مشرق أيضًا، ويعتقد البعض أنه عُولج بماء الأوكسجين. لكنني وُلدت بخُصَل صُفر بلون الذُّرة، نتيجةَ سوء التغذية الذي عانَتْه جدَّتي، وكذلك أمي، بعد الحرب. أنا من الجنوب؛ وُلدت في مقاطعة جيولا ـ دو، في كنف عائلة تتعيَّش من تجارة السمك، إلا أننا لسنا أثرياء. وعلى الرغم من ذلك، فإن والدَيَّ رغبا، بعد نيلي الشهادةَ الثانوية، في أن أحصل على أفضل تعليم، وصمَّما على إدخالي جامعة سكاي (Sky University)، وهي واحدة من جامعات سيول الثلاث المرموقة، واستدانا المال لدفع أقساطها. لم أواجه، بدايةً، صعوبةً في السكن، لأن عمَّتي، شقيقة أبي البِكر، قبلت استضافتي في شقتها الضيّقة في حي يونغسي، المجاور للجامعة، فتقاسمتُ غرفة صغيرة مع ابنتها. كانت تُدعى بايك هوا؛ أي الوردة الناصعة البياض، لكنَّها لم تكن جديرة بذلك الاسم قطّ. أذكر هذه التفاصيل بدقّة، لأنّ الظروف التي عايشتها آنذاك، والبيئةَ التي احتضنتني هناك، كانتا سببًا في المغامرات التي عشتها لاحقًا. حتى أن الدروس التي تلقَّيتها في الجامعة ساهمت في صَقل شخصيتي. واكتشفتُ،

داخلَ تلك الغرفة الصغيرة التي تقاسمتُها مع ابنة عمتي، مدى قدرة الإنسان على إضمار الشرّ، والغيرة، والجُبن، والتباهي بالكسل.

كانت بايك هوا تصغرني ببضعة أعوام. لذلك، سرعان ما أدركتُ أنني دُعيت إلى العيش في تلك الشقة لرعايتها؛ فبدأت طلبات عمتي على نحو: «بِتنا، بما أنك ناضجة وواعية، هلاّ تساعدين ابنة عمّتك على إتمام واجباتها المدرسية، أو على توضيب غرفتها، أو تنظيف البيت، أو تلاوة صلواتها، أو غسل ملابسها الداخلية..». وتحوّلت طلباتها، رويدًا رويدًا، إلى توصيات صارمة، فكانت تقول: «عليك، في النهاية، أن تكوني مثالاً لها». وانتهت بأن باتت أوامرَ بحتة، أقلُّها قولها: «بِتنا! ماذا قلنا لكِ؟ اذهبي واجلبي ابنة عمّتك، وحضّري لها الغداء!».

أصبح الوضع، في النهاية، لا يُحتمَل، فبايك هوا لم تكن تتصرَّف إلاّ على هواها. كانت في الرابعة عشرة، ولا يهمّها إلا نفسُها. تُقْضي ساعاتٍ طويلةً قبالة مرآة مكبّرة، تحدّق إلى احمرار بشرتها، وتزيل شوائبها، فتعصر البثور بواسطة أعواد قطنية، مستخرِجةً منها القيحَ، ثم تلطّف الجروح بمناديل مطهّرة، وتُخفي النُّدوب تحت طبقة من كْريم الهالات السوداء، وطبقةٍ أخرى من كْريم الأساس. حتى أنها أصبحت اختصاصية بالطبّ التجميلي!

كانت المعارك بيننا دائمة. وتدور بيننا حوارات طويلة، حين أُمْلي عليها واجباتِها، وتنتهي كلُّها بالصراخ والبكاء، وبنوبات غضب تدفع بايك هوا إلى رمي كلّ ما يقع في يدها فوق رأسي، أو إلى

خارج النافذة، في بعض الأحيان. كل شيء، من الصحون، إلى الأكواب، حتى السكاكين. ولم أكن أجرؤ على النظر إلى الأسفل لأرى إن كانت قد تسبَّبت بقتل أحد. وكان عليّ أن أتحمَّل الخسائر، وانتقاداتِ عمّتي، التي كانت تؤنّبني بالقول: «يا لك من جاحدة! على الرغم من كل الدعم والمساعدة اللذين نُقدّمهما إليك. فلولايَ لَكنتِ تتسوَّلين اليوم في الشارع، أو لاضُّطررتِ أن تعودي إلى أولئك الصَّيادين هناك في جويلا ـ دو، لتساعديهم على تقشير السَّمك وتنظيفه». وأيُّ ردّ يليق بتلك الانتقادات؟ مكتبة سَر من قرأ

بدأتُ تلك الفترة أتجوَّل في المدينة. فحصصي الجامعية لم تكن تشغل حيّزًا كبيرًا من وقتي. لذلك، كنت أستغلّ ساعات فراغي لأطوف الشوارع على قدمَيَّ، وأَسيح بالباصات والمترو. كنت، في البداية، أنزل إلى الشارع لعلّي أنسى المشكلات العائلية التي تنغّص حياتي، وقذارةَ الغرفة التي أتقاسمها مع ابنة عمتي، وانتقاداتِ أمّها المستمرة. فما إن أترك الشقّة وأَصفِق البابَ الحديديَّ خلفي لأهبط الدرجات الزلقة إلى الشارع، حتى أشعر بزوال عبء ثقيل عن كاهلي، فأتنفَّس بحريّة، وأستقبل الطاقة المتجدّدة في ساقَيَّ بابتسامة عريضة.

أصبح الشارع، بعد ذلك، هو المغامرة. فقرية جويلا ـ دو مملّة بعض الشيء، ووسط البلدة لا تزيد مساحته على شارع أو اثنين، وفيه بعض المتاجر، أغلبها محالُّ أطعمة وبضعة مطاعم. وعلى الرغم من أن الحياة هناك تبدأ باكرًا في الصباح، فإنها تتوقَّف وتهمد

عند الخامسة عصرًا. وأهمّ مغامرة يسجّلها النهار هي سَحب العربات المحمَّلة بالكرنب والبصل بالجرارات. لم تكن جويلا ـ دو تحيا إلاّ ثلاثَ مرات في السنة، تتزامن مع قدوم الأعياد الرسمية: عيد الحصاد (شوسيوك)، وعيد الشكر، عند زيارة المقابر، ورأس السنة الكورية. لذلك، شعرت كأنني أدخل عالمًا جديدًا عندما وصلت إلى سيول. فالأحياء هنا تغرق في جادات واسعة، تتموَّج فيها سياراتٌ وحافلات تذهب في كل الاتجاهات، ويحتشد على أرصفتها المشاةُ. وتعلّمت، بفضلها، التقدُّمَ بين الحشود من دون الاصطدام بأحد. وكنت أضطرّ، أحيانًا، بسبب حجمي (طولي ١,٥٦ متر ووزني ٤٣ كيلوغرامًا) إلى القفز فوق الأرصفة، أو الخروج عن الرصيف لتفادي الاصطدام. رافقتُ، في البداية، عمّتي وابنتها إلى السوق. وكنت أُفاجَأ بقدرتهما على المشي في خطوات ثابتة. لم أرَهما يومًا تخرجان عن الرصيف. كانتا تلتصقان، إحداهما بالأخرى، وتشكّلان حاجزًا صُلبًا، وتتقدَّمان مستقيمتين، من دون الالتفات يمينًا أو يسارًا، تمامًا مثل قذائف المدفعية الحربية! وكنت أتبعهما في الخلف، بخطوات حذرة. أنظر إلى عينَيْ كل شخص أصادفه، حتى لو بدا ذلك مستحيلًا، وأُلقي التحية على الغرباء في الشارع، وخصوصًا المتقدّمين في السن، إلى أن جاء اليوم الذي وبَّختني فيه عمتي، وصاحت في وجهي: «بِتنا، لمَ توزّعين ابتساماتِك على الجميع؟ هل تريدين أن يعتبروك معاقة؟». وسخرت مني يومها بايك هوا، وقالت: «يا لها من قرويّة جاهلة. لا تعرف شيئًا عن أهل المدينة!».

أتقنتُ، في تلك السنة، مراقبةَ الناس من دون أن يلاحظوني.

وذلك ليس بالأمر السهل، لأن نجاح المراقبة يتوقّف على موقعها؛ إذ يتوجَّب عليك ألاّ تبتعد عن الهدف كثيرًا، وألاّ تقترب أيضًا منه. ويمكن أن يساعدك في مهمتك هذه انعكاسُ الأجسام على الزجاج، في المترو مثلًا. لكنه قد لا يكون واضحًا في كل مرَّة. كما أنه يسهّل للركّاب ملاحظة نظراتك، إذا ما حدقوا إلى الزجاج، والتقى الانعكاسان. الحافلة أفضل خيار، لأنها في وضح النهار، تسمح لك بمراقبة الناس عبر الزجاج. فإمّا أن يكونوا داخل سياراتهم، فتكون أنت، بالتالي، في موقع المسيطِر، لأن الحافلة أكثر ارتفاعًا من السيارة؛ وإمّا أن تتوقّف الحافلة، أو تسير على طول الرصيف ببطء، فيتّسع لك كامل الوقت لمراقبة المشاة في الخارج، وحِياكةِ كلّ أنواع القصص عنهم: من أين يأتون؟ ممَّ يعيشون؟ ما نوع همومهم؟ أيّ مشكلات عاطفية أو ماديّة يعانون؟ أيّ حياة عاشوها في الماضي؟ ما هي ذكرياتهم، عائلاتهم، أحزانهم؟

اشتريت، لاحقًا، دفترًا صغيرًا، لأدوّن فيه كلَّ ما أراه، وأضيفَ إليه وصفًا سريعًا لكل هدف:

سيّدة شارفت على الخمسين. ترتدي معطفًا أسودَ باليًا؛ تنتعل حذاءً منبسطًا؛ تحمل في يدها حقيبة من الجلد الاصطناعي مع حلقتين ذهبيتين؛ شعرها رماديّ مجعَّد؛ لديها تجاعيد بارزة حول شفتيها؛ تعيش في غانغنام، داخل شقة صغيرة من أحد المباني، مطلَّقة؛ ترغب في تبنّي كلب، لكن القانون يمنعها. تُدعى السيدة ناه مي سوك. عملت طوالَ حياتها في مصرف وراء لوح زجاجيّ، تعدّ العملات الورقية، وتنفّذ التحويلات المالية. استقالت قبل بلوغها سنَّ التقاعد. فكرت في الانتحار، لكنها لم تجرؤ عليه فعليًا.

تلاقت نظراتنا، عندما انطلقت الحافلة. بدت أولًا مندهشة، لكنها سرعان ما أشاحت بنظرها عني، ثمَّ نظرت إليها مجدَّدًا بعد برهة، بينما كانت الحافلة تسير ببطء، فوجدتها تتبسم لي.

ثمّة امرأة شابة، تقف وحدها على حافة الطريق، بعيدًا عن نقطة توقُّف الحافلات. يبدو أنها تنتظر شخصًا ما؛ صديقًا يُقلُّها بسيارته، لكنَّه تأخَّر عن الموعد، فنفد صبرها، وظهرت التجاعيد بين حاجبيها. تفكّر في الرحيل، لكنَّ ساقيها تلتصقان بالأرض، وتعجَز عن الحركة، كما لو أنه كابوس مزعج! سأدعوها الآنسة كوه أون - جي. أظنّ أنه يليق بها. وإن قررتُ غدًا ركوبَ هذه الحافلة، ذاتِ الرقم ٦٦٠، فربما أجدها لا تزال منتظرةً في مكانها. فصديقها قرَّر قطع علاقته بها، ولم يَعُد يجيب على مكالماتها، وهي لا تجرؤ على الذهاب إليه، لأنه متزوّج.

ثمة امرأة عجوز. لا شكَّ في أنها من الجنوب. عرفتها من بشرتها السمراء التي لفحتها الشمس، ومن ظهرها المحدَوْدِب نتيجةَ عملها في الحقول. أتت إلى هنا لترافق ابنتها وحفيدتها إلى المستشفى، وتخشى الوصولَ متأخّرة إلى موعدها. ها هي تركض في اتجاه الحافلة، ثم تتراجع. عيناها صغيرتان، والتجاعيد في أعلى خدَّيها لها شَكلُ رِجل بطّة، وثمّة شامةٌ تظهر على جسر أنفها. تُدعى ابنتها يون جي، وهي متزوّجة، منذ ثلاثة أعوام، برَجل يعمل مفتّشًا. وتُدعى حفيدتها يونجا. اختارت لها اسمًا قريبًا من اسمها، وذلك أمر شائع بين الشقيقات. كما أنها تحمل اسمًا مسيحيًّا: ماريا، لأن حضرة المفتّش مسيحي.

كنت أدوّن الأسماء والأماكن، كما لو أنني سأعاود لقاء أولئك الأشخاص، على الرغم من أنني كنت واثقة، في الصميم، بانتفاء احتمال كهذا. فالمدينة كبيرة، ولو تنقَّلت فيها مليون مرة لما كنت لألتقي الشخصَ نفسه مرتين، حتى لو أن المَثَل يقول: «لا بدَّ من أن نلتقي مجدَّدًا تحت سماء سيول».

وجدت أخيرًا أفضل موقع لمراقبة الناس، داخلَ المكتبة الكبيرة في جونغنو. وصرت، ما إن تنتهي محاضراتي، حتى أهرع في المترو إلى خزنة الكتب تلك المدفونةِ تحت الأرض. لم أصدّق عينَيّ عندما رأيت أولَ مرة كلَّ تلك الكتب. فالمال، في جيولا ـ دو، غيرُ متوافر لشراء الكتب. لذلك لم أكن أملك سوى كتبي المدرسية. كانت كتب المكتبة قديمة ومتَّسخة ودَبقة، وصفحاتها تشبه المُسَوَّدة لانتقالها من يد إلى يد، على مدى أجيال. لذلك، وجدتُ صعوبة في الابتعاد عن هذا العالم بعد أن تعرَّفت إليه. وأصبحت أذهب مسرعةً إلى المكتبة فور خروجي من قاعة المحاضرات، وأجلسُ في زاويتها لأراقب الكتب والناس. وسرعان ما وقعت في حبّ الكتب الأجنبية. كنت أسحب المجلَّدات عن الرفّ عشوائيًّا، وأبدأ بقراءتها؛ فقرأت روايات لتشارلز ديكنز، وأُغرمت بـ «صرصار الليل على الموقد». كنت أشعر باختفاء كلّ ما يحيط بي عندما أبدأ بالقراءة، وأسمعُ إيقاع القِدْر الكبيرة فوق النار، ولحنَ الصرصار الذي يصفِرُ في الرماد، هناك في مكان ما، بعيدًا عن النظر. وأتصوَّر نفسي داخل تلك الغرفة الكبيرة قرب النار، أستمع إلى صوت ديكنز وهو يروي

قصَّتَه، باللغة الإنكليزية، لي وحدي. قرأت أيضًا رواياتِ مازو دي لا روش، مثل «جالنا»، ورواية مارغريت ميتشيل «ذهب مع الريح». وتعرَّفت لاحقًا إلى مجموعة قصص إدغار آلان بو؛ فقرأت له «القطّ الأسود» و«الصورة البيضاوية»، وسُحرت بكلماته التي أنستني مرور الوقت. وقرأت بالفرنسية أيضًا؛ فقد قررت، قبل سنتين، تعلُّمَ تلك اللغة الموسيقية العذبة، إلاّ أن مكتبة جونغنو الكبيرةَ تلك لم تضمَّ فوق رفوفها إلا بعضَ الدواوين، ومنها أشعارُ جاك بريفير، الذي أقدّر أعماله كثيرًا.

اقترب مني شابٌّ بضعَ مرات، وجلس إلى جانبي يراقبني بنظرات ملحّة، وأنا أقرأ. وأجبرني، ذات مرّة، على إشاحة عينَيّ عن الكتاب. قال: «اعذريني، لكنّ المكتبة ستقفل بعد خمس دقائق». فشعرت بارتباك واحمرَّت وجنتاي، وقلت له محاوِلةً التبرير: «أجد صعوبة في انتقاء الكتاب الذي سأشتريه، أعتذر عن ذلك». فأَحنى رأسه بأدب، كما لو أن الأمر لا يهمه، وقال: «لا، ليس عليك أن تقرّري اليوم. يمكنك العودة غدًا». لم يكن طويل القامة، أمّا عيناه فسوداوان مستطيلتان، وأنفه نحيف. فكّرت في ضمّه إلى قائمة شخصياتي المفضَّلة، وأعطيته فورًا اسمَ السيد باك.

بدأتُ، في تلك المكتبة، بمراقبتي الحقيقية للناس. فالحافلة والمترو وأرصفة الشوارع لم تكن أماكنَ مناسِبة تمامًا. فالناس هناك في حركة متواصلة: بعضهم يمشي بسرعة، وبعضهم يركض ركضًا. ومتى توقَّفوا، أصبح أنا الهدفَ في مراقبتهم. وهذا أفظع

ما قد يصيبني، لأنني أفضّل أن أبقى غير مرئية لهم؛ أن أراهم ولا يروننني.

حدث أمر، ذات يوم، قَلَبَ حياتي رأسًا على عَقِب. كنت قد انتهيت من تصفُّح كتاب، وأُوشك على إعادته إلى الرفّ، عندما اقترب مني السيد باك، وقال:

«تعالّي، لديَّ ما أُطلعك عليه».

لم أعرف ما يريده، لكنني طاوعته فورًا، ربما لأنني تصوَّرت أنه سيعرض عليّ العملَ في المكتبة. هذا حُلُمي لأنني أعشق الكُتب، وفي حاجة ملحّة إلى المال. كما أنّ عمتي، من جهة ثانية، لا تفوّت فرصة إلا وتُسمعني: «أنتِ تكلّفيننا الكثير. عليك إيجاد حلّ لإعالة نفسك، وتدبُّر نفقات علمك». وكانت ابنتها تعرف تلك التفاصيل، فتتعمَّد التصرّف بفظاعة، وتقلب الغرفة رأسًا على عقِب، لتستلذَّ بمشاهدتي وأنا أعيد ترتيبها من جديد.

فتح السيد باك دُرج مكتبه، وأخرج منه رسالة طُبعت على الآلة الكاتبة. كانت تقول بالحرف الواحد:

أُدعى كيم سي - دي، لكنني أفضّل أن تنادوني بسالومي. أنا مقعَدة في البيت، أعاني مرضًا عضالًا، وأنتظر الشخص الذي سيبُقيني على تواصل مع العالم. أنا مستمعة جيدة، وهذا الإعلان جديّ. سأدفع في مقابل قصصكم مُرتّبًا سخيًّا.

وتبع ذلك رقمُ هاتف.

سلَّمني السيد باك الرسالة، فأخذتها تلقائيًّا من دون تفكير، وطويتها، ثمّ وضعتها في حقيبتي بين كُتب المادة الإنكليزية وكرّاساتها. ومرّت أيام نسيتُ فيها أمرَها، إلى أن وقعتْ مجدَّدًا في يدي، فرفعتُ سمّاعة الهاتف، واتّصلت بسالومي.

أول قصة

أرويها لسالومي نيسان/إبريل ٢٠١٦

يُخرج السيد شو هان - شو أقفاصَ الحمَام في الربيع، عندما تتفتَّح البراعم، ويهبُّ النسيم الذي تَتوق إليه الأزهار، ويصعد بها إلى سطح المبنى. وحده السيد شو، له الحقّ في الولوج إلى هناك، لأنه حارس المبنى، والوحيد الذي يحتفظ بالمفاتيح. المبنى عمارة كبيرة شُيّدت في الثمانينات، وهو واحد من مجموعة مبانٍ أُطلق عليها اسم غود لاك! *(Good Luck!)* (هكذا باللغة الإنكليزية، مع إشارة تعجب). لا أعرف الدافع إلى تلك التسمية؛ ربما كان غيابَ الأمل في جني أيّ ثروة منه، أو الحصولِ على أيّ سعادة؛ فهو لا يتمتَّع بأيّ أسلوب معماريّ، وكل ما يتميّز به النوافذ المتطابقة مع مئات، بل آلاف الشرفات المجاورة، والتي تتدلّى منها الملابس المغسولة، لتجفّ تحت أشعّة الشمس الباهتة، لدى اختراقها الألواح الزجاجية. مبنى السيد شو هو المبنى التاسع عشر، ورقمه ١٩، كُتب على الجدار الخارجي بالطلاء الأسود. وهو يحمل ذلك الرقم لأنه مسبوق بثمانية عشر مبنًى آخر، كلُّها متشابهة. لكنّ المبنى التاسع عشر هو الأفضل بينها، لأنه يقع في أعلى هضبة يونغسان.

يصعد السيد شو، في الربيع، إلى السطح، الذي يقع في الطابق العشرين، ليمتّع ناظريه بالمدينة ومبانيها المرتفعة، عندما تشقُّ الضبابَ. ترتفع درجة حرارة الشمس، في هذا الفصل من السنة، ويدفأ الهواء، ويفوح العطر من أغصان الصنوبر. وهذا ما يثير حماسة طيور الحمَام داخل الأقفاص، فتبدأ بالهديل والتزاحُم، محاولةً مدَّ أعناقها إلى الخارج، متناسيةً الشّباك المثبَّتة عند حوافّ كلّ قفص. وهذا الأمر دفع بعض الناس إلى القول: «طائر الحمَام هو الحيوان الأكثر غباءً بين مخلوقات الطبيعة!». وحاولوا إثبات نظريَّتهم، بالإشارة إلى تلك الطيور التي تحاول الهروب عبر ثقب لا يتَّسع إلا لنصف منقار كلٍّ منها. «هل رأيتم حجم دماغها؟» لا يرى السيد شو فائدة من مناقشة هذا الأمر، فقد سبق له أن اعترض على أقوالهم، مرةً أو مرّتين: «لكنها تطير، هل تفهمون معنى أن تطير. الأمر مختلف تمامًا عن قيادة سيارة، أو حلّ لعبة سودوكو». كان جميع مَن حوله يعرفون تعلُّقَه بحمائمه: عامّة الناس، والجيران، وسكان المبنى، وسائر حرّاس المباني؛ الكلّ بلا استثناء.

يخمد الجميع في الشتاء، فيبدو السيد شو كأنّه يغطّ وطيور حمَامه في سُبات عميق. سبق له أن عقد اتفاقًا مع مدير مبنى غود لاك!، فوافق على حراسته من دون تقاضي أيّ أجر، في مقابل أن يحصل على إذن بالاحتفاظ بحمَائمه الزاجلة والصعود بها إلى سطح البناء لتستنشق الهواء. «لكن، احرصْ على ألا توسّخ طيورُك المكانَ، ولا تستخدمْ المصعد لإيصالها!»، فوافق السيد شو على الفور. بدا

الأمر ظاهريًّا، كأنّ المدير قد أسدى خدمة إلى السيد شو. لكنه، في الواقع، وهب المبنى حارسًا عمل سابقًا في الشرطة. واليوم يكون قد مضى على تسلّم السيد شو حراسة المبنى الـ١٩ خمس سنوات. كان قبل ذلك يعيش في الريف، في قرية غانغهوا-دو، التي تقع قرب الحدود مع كوريا الشمالية. ونشأ هناك بعد أن عبَرت والدته منطقةَ المعارك، ولجأت إلى كوريا الجنوبية لتستقرَّ فيها؛ فبدأت العمل مزارِعةً في حقول البصل والبطاطا، وتزوَّجت لاحقًا بمالك المزرعة. كانت الحرب قد انتهت والسّلم لم يحلَّ تمامًا، عندما كان السيد شو طفلًا، والجنود لا يزالون منتشرين في كل مكان، والطرقات مزدحمة بالدبابات والشاحنات العسكرية؛ فالقاعدة الأميركية لم تكن على مسافة بعيدة. كلُّ ما كان السيد شو يعرفه عن مَوطن أمّه وأبيه وأجداده، هو الاسمُ: غايسونغ. وأخبرته أمُّه مرّات عدّة أن جدَّه كان رجلًا ضخم البنية، بهيَّ الطلعة، شديدَ السُّمرة وكثيفَ الشعر. وكان مغنّي بانسوري، وصاحب مزرعة إجاص ورثها عن زوجته. وكانت تردّد أمامه أنه كان ثريًّا ومتسلّطًا، وكريمًا في الوقت نفسه. لكنْ، ماذا حلَّ به بعد الحرب؟ توفّي قبل مدة طويلة. لم يعد أحد في هذه الجهة، يذكره اليومَ، باستثناء السيد شو، لأنه حفظ كل ما أخبرته به والدته، التي حملت ذكراه معها حتى مماتها. وهو مَدين لأمّه أيضًا بحبّه للحَمام، فقد اصطحبت معها، عندما عبَرت خطوطَ التماس، ابنَها وزوجًا من طيور الحمَام الزاجل ربّاهما والدها، ونقلتهما على ظهرها في كيس مثقوب. وكان هدفها من اصطحاب طائرَي الحمَام، آنذاك، أن يعودا ذات يوم إلى وطنها، وينقلا أخبارها إلى أسرتها

التي بقيت هناك. ومرَّ الوقت، لكنّ والدة السيد شو لم تجرؤ على إرسالهما إلى هناك، فبقيا في هذه الجهة إلى أن شاخا وماتا. وأنجبا، خلال تلك المُدّة، كثيرًا من الزغاليل، فربّاها السيد شو لعلَّها تحقّق يومًا ما تلك الأمنيةَ. لكنه لم يُفصح عن نيته هذه لأحد. فمَن كان سيؤمن بأن جيلًا ثالثًا أو رابعًا من الطيور، قادرٌ على تذكُّر طريق العودة إلى الوطن؟

حلّ الصباح، وكان أفضلَ وقت للحمَام. حمل السيد شو الأقفاص الخمسة إلى السطح، قفصًا وراء قفص. كان يضع كل زوجين في قفص، ويفصل بين الزوج والآخر بحاجز من الكرتون الصُّلب. وأعطى كل زوج اسمَ أسرة، إذا جاز التعبير، ومنحَ كلَّ طائر اسمًا شخصيًّا، فبدا ذلك للبعض أمرًا تافهًا. ووجَّهت إليه جارتُه، السيدة لي، ذاتَ يوم ملاحظةً: «لمَ تعطيها أسماءَ؟ وهل ستجيبك عندما تناديها بها. إنها مجرّد طيور، وليست كلابًا!». نظر يومها السيد شو إليها نظرةً ملؤها العتب، وقال: «بالطبع، تعرف أسماءها يا سيدة. برأيي، هي أكثر ذكاءً من كلبك». لكن السيدة لي ليست ممن يقتنعون بسهولة، كما أنها من النوع الذي يعترض على كل شيء. وسُرَّت بردّ السيد شو على أسئلتها، على غير عادته، فتابعت قائلة: «لم أسمع بمثل هذه السخافة من قبل. بِمَ تتميَّز حمائمك عن كلبي؟». فجاءت إجابته جازمة، أسكت بها السيدةَ لي نهائيًّا: «حمائمي تطير يا سيدة». وفكّرت في سرّها، لاحقًا: «كان في إمكاني أن أجيبه بأن القدرة على الطيران لا تشير إلى الذكاء. ثُمّ، لو كان لـ «ضفدع» (وهو ما أسمت به كلبها بسبب حجمه الصغير، فهو

قصير وبدين، وينقّ كالضفدع، عوضًا عن النباح مثل كلب) جناحان لطار هو أيضًا».

صعد السيد شو، في صبيحة ذلك اليوم الربيعي، بالأقفاص الخمسة إلى السطح، من دون استخدام المصعد، احترامًا للاتفاق الذي عقده مع مدير مبنى غود لاك!، والذي يقضي بألا يُدخل الحمام إليه. ولو فعل ذلك، لتسلّمَ فورًا توبيخًا من المصرف، مالك المبنى، في إثر تلقّيه إخبارًا من أحد الخصوم السيّئي النية، يدّعي فيه أنه يعاني حساسية من ريش الطيور، فيدخل السيد شو في نزاع، وهو يكره النزاعات.

وصل السيد شو إلى السطح لاهثًا، بعد أن اضطُرّ إلى صعود عشرين طابقًا خمسَ مرات. وكان يحتسب عدد الدرجات التي يصعدها في كل مرة، ليجد أنها أربعمئة درجة، وأنه صعد في المرات الخمس ألفي درجة. فهو لم يعد شابًّا، وقد تخطّى سنَّ التقاعد، وبات يشعر، بعد الأعوام الثلاثين التي قضاها في الشرطة، بتعب في ساقيه ورئتيه، وهو مدرك أنه لم يعد في العشرين، ولا في الخامسة والثلاثين. وصل السيد شو إلى السطح، وحاول الاسترخاء قليلًا، فجلس فوق ركيزة لمنفذ تهوئة، وراح يتأمّل انشقاق المدينة التدريجي عن الضباب الصباحي. وما هي إلا لحظات حتى تمكّن من رؤية نامسان وهوائيّ برج الإذاعة، ورأى ما هو أبعد منهما؛ أي الجسر الطويل المتلألئ فوق نهر هان. وامتدّ نظره إلى أبعد من ذلك أيضًا، حيث ناطحات السحاب والطُّرق السريعة في غانغنام. هي لحظات قليلة استغرقته

كي يتمكّن من رؤية ذلك كلّه بوضوح. كان يوم أحد من فصل الربيع، والوقت لا يزال باكرًا، وضجّة المدينة خامدة، كأن العالم يحبس أنفاسه منتظرًا ما سيحدث لاحقًا في النهار.

حان الوقت بعد أن استنفدَ الحمَام صبره في الانتظار، وبدأ يدور حول نفسه في الممرّات الضيقة، ويرفرف بأجنحته، فيَصدر عن ريشه صفيرٌ ملحّ. شعر السيد شو بذلك في الصميم. ففي داخله ما يشبه التيّار الكهربائيّ، يجتاح أعضاءَه، وينكزه في أطراف أصابعه، فتنتصب الشعيرات على ظهر يده. قرفص، عندئذٍ، قبالة الأقفاص، ليحدّث طيوره، ناطقًا أسماءها، الواحد تلوَ الآخر:

ثعلبة، وأنتَ الذكر شرشور
زرقا، وأنتَ أبو الحناء
صاروخ والسهم الأبيض
ضياء وقمر
ذبابة وزيز
سندبادة وريّس
بلياتشو وسنجاب
ماسة والتنين الأسود
طروب وملك
باليرينا وسيف

لطالما أحبَّ السيد شو مناداتها بأسمائها، وهو مشيح بوجهه نحو

القفص. وما إن تسمع أسماءها حتى تتوقف فورًا عن العبث، وترمي برأسها إلى الخلف لتنظر إلى الفضاء بعيونها الصفراء. كان السيد شو يرى في ذلك إقرارًا، ويترجمه على أنه كلمات شكر، فيها شيء من الوعد. لكن أيّ وعد؟ هو عاجز عن تحديده، ولو أنّ الأمر مرتبط به، ويُحْيي فيه ذكرى الماضي، مثلَ حلم يراوده في المنام بعد أيام من النعاس.

فتح السيد شو، عندما حانت اللحظةُ، علبةً حديدية بيضاء متوسّطة الطول، تشبه المقلمة المدرسية، وفيها سلسلةٌ رسائل مكتوبة بخطّ يد جميل على أوراق زينة ناعمة شبه شفافة. هذه الرسائل ماثلة في مخيّلته منذ زمن بعيد. كانت هناك قبل أن تصبح حبرًا على ورق. وهو لم يشأ الكتابة عن موضوع محدَّد، ولا بهدف التسلية، ولو أن ابنته سو - مي غاظته بالقول: «هل أنتَ، إذن، تراسل عشيقتك؟» أو: «لا تنسَ أن تدوّن رقم هاتفك!».

هي لا تؤمن، طبعًا، بالرسائل الخطّية، لأنها لا تمتّ بصِلة إلى عصرها، ولا إلى عصر سكان المبنى الأكبر سنًّا. فهؤلاء يواكبون عصرهم أيضًا، ويسخرون من أوهام السيد شو. فهم يستفيدون من خدمة الإنترنت، ويتراسلون عبر الهواتف النقّالة، وعيونهم لا تفارق شاشاتها، ويستخدمون المراسلات الإلكترونية. لقد مرّ زمن طويل لم يكتبوا فيه رسائل خطّية. وعلى الرغم من ذلك، فإن سو - مي كانت، قبل سنوات قليلة، تحبُّ كتابة الرسائل بخطّ يدها. ولا يزال السيد شو يذكر كيف كانت تنظُم أبيات الشعر، وكيف كان يلفُّ لها

الأوراق مثلما تُلَفُّ السجائر، ليربطها لاحقًا بأرجُل طيور الحمَام. لكنها توقَّفت، بعد ذلك، عن الكتابة، عندما استقرّا في المبنى الـ١٩، وسط تلك المدينة الكبيرة، حيث لم تعد تؤمن لا بالحمَام، ولا بالرسائل الخطّية. لقد أمست، في هذه المدينة، تشبه الباقين.

حانت الساعة المنتظَرة، ففتح السيد شو باب القفص، حيث يحتجز التنين الأسود، وأخرجه، في رفق، بين كفَّيه، فأحس بخفقات قلب الطائر داخل صدره، وباعتدال الحرارة في بطنه والبرودة في ساقيه. وراح يداعبه بطرفَي إبهاميه، ويقرّبه من وجهه لينفخ فوق رأسه وفي أعلى منقاره. فغمز الطير بعينيه، ثم فتحهما، وبرز البؤبؤ من جديد. يبدو أنه فهم أن الوقت قد حان لينطلق في مهمته، ويحلّق عاليًا.

هبَّ النسيم معتدلًا حينًا، وهائجًا حينًا. كان السيد شو يعرف تمامًا تلك الفترة من السنة. فهذا النسيم هو المفضَّل لديه، «النسيم الذي تَتوق إليه الأزهار»، والذي يُحْيي فيه ذكرى الثلج الممتزج برحيق براعم أزهار الخوخ التي تتفتَّح في الوادي، على الرغم من أن المكان هنا يخلو من الخوخ، بل يُحاط فقط بأقدار يحرثها خصوم السيد شو في مبنى غود لاك!، في ساعات فراغهم، وأشجار المانيوليا التي تخلو من الأزهار، والمزروعة على طول المبنى.

انتفض التنين الأسود بين يدَي صاحبه، فأحس السيد شو بقلبه الصغير يترنَّح تحت ريشه مثل الجرس. نفخ، عندئذ، فوق منقاره، وتمتم كلمات مشجّعة؛ كلمات بسيطة مختارة بعيدًا عن

الجُمَل المتملّقة والمنمَّقة؛ كلمات خفيفة لطيفة ذات إيقاع متناغم: «هـواء»؛ «روح»؛ «ضـوء»؛ «جنـاح»؛ «حُـب»؛ «عـودة»؛ «عشـب»؛ «ثلج»... إلا أن التنين الأسـود كان يرغب في سـماع كلمة واحدة؛ كلمة «أمل»، أو كلمة «رغبة»، التي يعني اسـمها في الوقت نفسـه «هواء» وذلك إرضاءً لزوجه ماسـة. بقي التنين الأسود مسـتمعًا، وبرز البؤبؤان مجدَّدًا من عينيه الصفراوين، وإذا بالسيد شو يسـمع داخل حنجرته صوتَ تدحـرج الحصى. فهذه كلمات في لغة الحمَـام؛ في لغـة حَنجرته فقط، لأن الطيـر كان يرغب في التحدُّث بريشه، بجناحيه، بذنَبه وهو يشقّ الهواء؛ في التحدث وهو يغوص في التيارات الهوائية. دنا السيد شو ببطء من حافة السطح، ومدَّ يده كما لو أنه يقدّم الطير قربانًا إلى السـماء. وڤوووف! انطلق التنين الأسود في رحلته. هبط أولًا إلى الطريق، ثم اسـتأنف الطيران بسرعة ليحلّق مجدَّدًا في الفضاء فوق المباني، في اتجاه الشمس المشرقة.

سمعت ماسة رفرفةَ أجنحة، فشعرت على الفور بضِيق القفص. لقد أدركت أن دورها قد حان، لذلك بدأت تصيح. حملها السيد شو بين يديه، فراحت تنقرهما. «دعني، يا غبيّ! لقد سبقني حبيبي إلى السماء، فدعني ألحق به!». لم يكن هناك داعٍ لأن يقترب السيد شو من حافة السطح. فما إن فتح يديه حتى طارَت ماسة في الهواء. كانت أخفَّ وزنًا من زوجها، لذلك ارتفعت مباشرة في الفضاء، وراحت ترسم أنصاف دوائر في الأفق فوق الجادة، إلى أن اختفت وراء الشمس بلمحة بصر. لكن السيد شو عجز عن تتبُّعها بسبب ضعف نظره وحدّة أشعّة الشمس التي تُدمع عينيه.

وبدأت رحلة الانتظار. كان السيد شو يدرك أن الأمر سيستغرق بضع ساعات، إلى أن يهبط الليل. فجلس قرب الأقفاص وأغمض عينيه ليتصوَّر المدينة تحت أنظار التنين الأسود وماسة، فتراءت في مخيّلته المباني الزجاجيةُ الشامخة مثل أجراف الكريستال، والطرقُ السريعة ثم النهرُ الطويل. وتحوَّلت الطاقةُ التي خزناها في أجنحتهما طوال أسابيع من الحَصر، إلى قوة كهربائية، لذلك كانا قادرين على الرفرفة والتحليق بسرعة فائقة، ثم دفعتهما التيارات الهوائية إلى الأعلى، وسحبتهما الثقوب الجليدية لاحقًا إلى النهر. قاد التنين الأسود الرحلة إلى أن بلغا النهر. وتقدَّمته ماسةُ بعد ذلك، فطارا على طول الضفة إلى أن بلغا الجسر الواقع قرب الجزيرة. لم تكن السماء خاليةً من الطيور. التقيا، في الأسفل، سربًا من النوارس، وآخرَ من طيور الزمج، وقرب الجزيرة مجموعةً من البطّ. تابعت الحمامتان تقدمهما، وهما ترسمان دوائر فوق المياه، فلمع سطحها وتماوج، ومالت خُصَل الأعشاب والأسل مع وجهة الهواء. توقّفت السيارات بسبب ازدحام الصباح فوق الجسر الكبير، وعلا صَخَبُ الأبواق وصياح البطّ وصفير القطار وهو يعبر النهر. كان السيد شو قد اصطحب معه أقدم طيوره ليستأنس به طوال فترة الانتظار. وذلك الطير واحد من التي ورثها عن أمه، وربما كان أحد أبناء زوج الحمام، الذي أحضرته معها. اسمه شوشونغسا، أي «الطيّار»؛ إذ كان يحلّق عاليًا مثل الطائرة، لكنه أُصيب بالعمى وبهشاشة العظام، فبقي يومها بين كفَّي السيد شو يتنفّس الهواء ويستمتع بأشعة الشمس وهي تداعب ريشه.

صفقت سالومي وفي عينيها بريق، وراحت تومئ بيديها، فانحرفت يُسراها قليلًا بدلًا من أن تحطّ على جبينها، واصطدمت بأنفها، فظهرت تكشيرة بغيضة على وجهها.

«عليك أن ترتاحي قليلًا، ألم يَحِنِ الوقت؟».

سالومي طويلة ونحيفة، لكنها متقوقعة في كرسيّها المتحرك نتيجة المرض، وهناك بطانية إسكوتلندية تضعها على ساقيها الضعيفتين لتُخفي الأحفضة التي ترتديها. لكنها نجحت في تحويل الموضوع إلى مزحة: «هذا حتى لا يكتشف أحد ساقَيَّ المرتجفتين. لا أريد خسارة سعادتي!». وأنا، طبعًا، كنت أعرف تلك الأسطورة، وأقدّر شجاعتها على السخرية من نفسها.

فأصررت عليها: «لا بدَّ من أنك متعبة؟».

- «لا، أنا بخير».

بحثتْ عن سبب يُظهر عدم رضاها، وهذا جزء من طباعها، فلم تجد حجّة سوى معرفة الأسماء:

«قصتك هذه أحببتها كثيرًا. أشعر بأنني قادرة أنا أيضًا على الطيران فوق المدينة، مثل حمَائم السيد شو. أشعر بأنني خفيفة!». وتابعت ساخرة: «لكنني أريد أسماء!».

لم أفهم جيدًا: «أسماء؟ أيّ أسماء؟».

فأومأت مجدَّدًا من شدَّة الحماسة: «أسماء الأماكن التي طار فوقها الحمَام، اذكري لي أسماء!».

فما كان عليّ إلا أن أخترع لها أسماء، وأعطيها كل الأسماء التي أعرفها في هذه المدينة، وأسماءَ من نسج خيالي، لأماكنَ لم أزرها في الواقع، ورأيتها فقط في الحلم.

طار التنّين الأسود وماسةُ فوق المباني إلى نهر هان، ومرّا فوق يويدو، حيث الدوائر الحكومية البيضاء، وطارا فوق المتنزَّهات، حيث يصطحب الأجداد أحفادهم بعد ظهر أيام الآحاد. استدارا على جنبيهما. ها هما يطيران الآن فوق الجسر الكبير، سيوغانغداييغيو، المزدحم بالسيارات المسرعة، واحدة تلو الأخرى، كأنه اجتياح للحشرات. لم يتوقَّفا هناك، بل تابعا طيرانهما إلى جزيرة البطّ، ثم عادا أدراجهما إلى النهر، ولاحقًا إلى القناة في اتجاه ميونغ - دونغ، مرورًا بفندق سافوا. كانت معظم الشوارع مزدحمة، والممرّات لا تزال مظلمة. ارتفع زوج الحمام إلى الجبل الكبير، فأرادت ماسةُ التوقف لحظةً عند أشجار الصنوبر. كانت تحبّ رائحتها الحادّة، وكم تمنت لو أن التنّين الأسود يبني لهما عشًّا بين أغصانها. مَن يدري؟ فربما يحقّق لها أمنيتها ذات يوم، لكنه سيتابع الآن مسرعًا في طيرانه، ويرسم قوسًا طويلًا يقوده إلى جونغنو، حيث مكتبة كيوبو. فطارا معًا في اتجاه إنسادونغ، وتابعا في اتجاه حدائق شانغجيونغجانغ، مرورًا بالحديقة السرية. ولمع هناك سطح البحيرات تحت أشعّة الشمس،

وفاحت رائحة الأشجار والأزهار، وهبط الهواء من الجبل فأعادهما إلى الخلف، فوجدا نفسيهما، فجأة، فوق دونغدايمون وسامشيونغ.

كان السيد شو، من مكانه على سطح مبناه المغبّر، قادرًا على تصوُّر المنظر الذي يراه طيراه: أسطح المباني التقليدية بقرميدها اللمّاع والبرّاق، والحدائق والباحات المربَّعة الشكل. عاد طائرا الحمَام إلى محيط قصر جيونغبوكغانغ، حيث محطة القطار، وهبطا إلى مستوى الشمس، بعد أن قارب النهار على نهايته، وبدآ يشعران بالتعب من طول المسافة. ورسم كلٌّ منهما، مرةً أخرى، نصفَ دائرة حول مباني سامسونغ، ثم أتت رياح النهر، أو رياح الأفق، ودفعت بهما إلى الظلال العالية الملقاة على تلة التنين؛ إلى السقف الأعلى، حيث ينتظرهما السيد شو.

بانت الإثارة على وجه سالومي، فراحت تغمض عينيها، وأنا أذكر لها الأسماء، وشرعت تنزلق في الهواء برفقة زوج الحمام، تنطلق معهما من شارع إلى آخر، يدفعهم التيّار الهوائي النابع من النهر، وسط تشابك أصوات السيارات والشاحنات والحافلات، وصرير السكّة الحديدية تحت القطار المنطلق هناك قرب محطة سينشون.

ألّفتُ لسالومي أسماء كثيرة:

سونغسي؛ ميونغجو؛ شيونغانغ؛ بييولهاي؛ بارامجيبي؛ توخايي؛ هونغرو...

كانت كلُّها من نسج خيالي، وسالومي تصدَّقها. كانت تمسك مقبضَي كرسيّها المتحرّك بيديها البيضاوين كأنها على وشك الإقلاع، لتحلّق وهي جالسة عليه تحت الغيوم...

تزحلقتْ، لاحقًا، فوق ظهر المقعد قليلًا، وأغمضت عينيها، فتحوَّل بياض جفنيها إلى زرقة وغطُّت في نوم عميق. نهضتُ عن الكرسيّ ببطء، وأخذتُ المغلَّف الذي يحتوي على ٥٠ ٠٠٠ ون، من دون أن أُحدث جلبة، وقد كُتب عليه اسمي بحروف لاتينية كبيرة غير متساوية الحجم، ***BitNA*** ثم دفعت باب الاستوديو وخرجت إلى الشارع.

تدهورت أحوال المنزل في تلك الفترة، وأصبحت المشاحنات أكثر تواترًا، ومعظمها بسبب ابنة عمتي العزيزة. فبايك هوا الجميلة، بدأت تخرج ليلًا لتعاشر الشبّان. ويجوز القول، باختصار، إنها أصبحت متهوّرة.

«أنت لديكِ خبرة في هذه الحياة»، قالت عمتي موجّهة إليَّ الحديث. لا أدري عن أي خبرة كانت تتكلّم. «قولي لها أن تصحّح سلوكها. لقد تراجعت في المدرسة، وتقول إنها لا ترغب في متابعة دراستها. إنها ترى أن الأمر غير مُجْدٍ».

كنت قد حاولت معها من قبل؛ ففي العمق كانت تثير فيّ قليلًا من الشفقة. لطالما كانت الفتاة المدلَّلة في الأسرة، ولا تعرف شيئًا عن المعنى الحقيقي للحياة. انتظرتها، ذاتَ يوم بعد الظهر، عند بوابة مدرستها، لأُلقي عليها عظة، فذهبنا إلى مقهى لافازا في هونغجيك، وجلسنا على الشرفة لتتمكّن من التدخين.

- قد لا يناسبك التدخين وأنت يافعة.

- تقولين هذا لأنك لم تدخّني يومًا؟

- لا، لم أكن أدخن وأنا في عمرك.

- وما الفرق؟

لم أعلّق مطوَّلًا على الموضوع. فإن دخَّنت في الخفاء أو في العلن، فالأمر لا يهمُّني في النهاية.

- أنت حرّة، لكنك لا تُتمّين واجباتك الدراسية في الصفّ.

- كيف عرفت؟

- اسمعي، لقد نظرت إلى دفتر علاماتك. أنت شبه غائبة، ونتائج علاماتك كارثية.

- ولمَ تهتمّين بعلاماتي؟

علت نبرتها فجأة، وانحنت صوبي، فرأيت بؤبؤَي عينيها يبرزان بوضوح، والشرايين الصغيرة فوق صدغيها تنتفخ من شدَّةَ الغضب.

«أنت نَكرة؛ مجرد فتاة قروية، وتضعين نفسك فوق الجميع لمجرد أنك تدرسين في الجامعة! عودي إلى جويلا ـ دو، إلى شِباك صيد الحبّار!».

وجدتها فجأة قبيحة وسُوقية. كنت أستمع إلى إهاناتها، وأنا أفكر: كم أنها تشبه عمتي. لديهما الوجهُ العريض نفسه، والذقنُ المتراجع إلى الخلف ذاته، والجبينُ المنخفض نفسه، على الرغم من فارق الأعوام العشرين بينهما. كل ما قالته لي عن العودة إلى الصيد وسواها، كان كلامَ عمتي. لا بدَّ من أنها كانت تردّد ذلك في غيابي.

لذلك، اتخذت قراري. استأجرت، بالمال الذي جنيته من

سالومي، غرفةً صغيرة في حي آخر؛ هناك عند الهضبة فوق سينشون. الجميل في تلك الغرفة كان مدخلَها المستقلَّ. وجدت نفسي، فجأةً، غيرَ مضطرّة أن ألتقي صاحبة الشقة عند كل دخول وخروج. كانت غرفة واحدة في طابق سفلي لمنزل منفرد، تتبعها غرفة غسيل قديمة ومرحاضٌ مع ستارة بلاستيكية تفصل بينهما. وبالرغم من الرطوبة، والظلمة التي تعمّ المكان، فإنني شعرت فيها كأنني في منزلي. لم أعد مضطرّة إلى تحمُّل نواح ابنة عمتي، وتوبيخ أمّها، وشخير أبيها. كنت أذهب إلى حصصي الدراسية، وأشتري وجبات صغيرة آكلها، كانت عبارة عن عبوة كوكا من هنا، وعلبة سجائر من هناك. شعرت، وأنا أسكن فيها، بأنني أسعد امرأة في العالم. لم أتصوَّر يومًا أن الوحدة جميلة إلى ذلك الحد، وأنها لا تضطرّك إلى رؤية أيّ كان. لا أفهم الفتيات اللواتي يشتكين من غياب الأصدقاء، وما يسبّبه لهن من وحدة. هؤلاء حتمًا لا يعرفن معنى السعادة الحقيقيَّ. حتى إنني لم أشعر بحاجة إلى الحصول على حبيب، فكل الشبّان الذين التقيتهم كانوا في نظري أغبياء ومغرورين؛ ملوكاً صغارًا تدلَّلوا في أحضان أمهاتهم أو صديقاتهم أو أخواتهم البكر أو مدرّساتهم، لا يهتمون إلا بأنفسهم. يُمضون معظم أوقاتهم في تسريح شُعورهم، والتعطّر وتفقُّد تسريحاتهم في صور السّلْفي. كنت أرسلهم بعيدًا كلما اقترب أحدهم مني، أو حاول إبهاري بأكاذيبه. كان انتقاد صغير مني كافيًا لإحباط عزيمتهم. أقابلهم بقولي: «أنت وبُثورك!» أو «ألم يسبق لأحد أن انزعج من رائحتك الكريهة؟» أو: «من أين حصلت على هذه السترة. تبدو فيها كأنك ميكانيكيّ!»، وكان ذلك كافيًا

ليرحلوا عني إلى الأبد. كانوا يذكّرونني بأولئك المحتالين الذين يوقفون الناس ويحدّثونهم عن العالم الآخر، فيسحبونهم إلى أماكن معزولة خارج المدينة، ويسلبونهم أموالهم!

الوحيدة التي كنت أرغب في لقائها مجددًا هي سالومي. لا لأنها استخدمتني حتى أقصَّ عليها الأخبار، بل لأن لها أسلوبها في الاستماع إليَّ، كما لو أنها تمتصّ كلامي امتصاصًا، وكما لو أن كل طاقتها العاجزة تخرج من عينيها. اتَّصلت بي ذات صباح. كنت حينها في الصفّ. ظهر رقمها على شاشة هاتفي، لكنني لم أعاود الاتصال بها. وكنت في كافتيريا الجامعة أتناول حسائي عند الغداء، عندما عادت واتصلت بي مجدَّدًا.

- موشي، موشي؟ (هكذا كانت تتلقّى المكالمات).

أنا في حاجة إليك. أنتظر بقية القصة. لمَ لمْ تعاودي الاتصال بي؟

- انشغلت في الجامعة، كلَّفوني التحضير لندوة عن الترجمة.

كنت أقول الحقيقة، لكنني فعلًا انشغلت بنقل أغراضي إلى مكاني الجديد. لم يكن في وسعي إخبارها بذلك، بعد أن قرَّرنا عدم التطرُّق إلى الحياة الشخصية لأيّ منا؛ وقد أحببت ذلك، لأن الناس ميّالون إلى الثرثرة بشأن أسخف همومهم؛ تلك التي لا تهمّ أحدًا سواهم. صحيح أن سالومي كانت تعاني مشكلات صحية معقَّدة، لكنها لم تذكرها أمامي إلا مرّةً واحدة، لتبرّر عدم قدرتها على المشي، وزيارةَ الممرّضات المتكرّرة لمساعدتها على الاغتسال

وتغيير ملابسها، ولتُفهمني أنها عاجزة عن مرافقتي إلى الباب لتوديعي. لم ألتقِ يومًا أحدًا في مثل هذه الحالة. حتى جدّتي، قبل وفاتها، كانت قادرة على الخروج، ولو بصعوبة، لإطعام دجاجاتها.

«سأكون في انتظارك بعد الظهر. ستأتين؟ أليس كذلك؟».

فلم أتردَّد في إجابتها:

«بالتأكيد، في تمام الساعة الخامسة».

- آه يا بِتنا، أنت ملاك.

قالتها بالإنكليزية. ووصلتني، في اللحظة التالية، رسالةٌ نصّية قصيرة، فيها صورة مضحكة لفتى مع إكليل عصافير ترقص حول رأسه.

ركبت الحافلة التي توصلني إلى حيّها قرب الليسيه الفرنسية جنوبيّ المدينة. جعلتني الشمس الساطعة أنتبه كم أن حيَّها جميل. المباني فيه صغيرة وفخمة، وتحيط بها حدائق ملوَّنة أو فيلّات عصرية. وكلاب الحراسة وراء الأسوار تنبح كلما اقتربتُ من بوابتها. عدد المشاة محدود في حيّها، على عكس مرتفعات سينشون، حيث يتنقَّل كل الناس هناك على أقدامهم، فضلًا عن ازدحام المكان بالعربات المحمَّلة بالخُضَر، وعربات اليد الممتلئة بالكراتين القديمة. كنت قد زرت حي سالومي مرة واحدة، ولاحظت، على الرغم من ذلك، أن السيارات لا تتحرَّك. كانت تُركَن ضمن المواقع المطليَّة والمخصَّصة لها إلى جانب الطريق. وتعرَّفت، أمام مدخل مبنى سالومي، إلى

سيارة الممرّضة الرمادية من نوع كيّا، وقد ركنتها إلى جانب الحائط. فشعرتُ بشيء من الاطمئنان، وراودني، في الوقت نفسه، بعضٌ من القلق، بسبب رؤية كل شيء لا يتحرَّك ويسبّب لنا الريبة. وكدت أعود أدراجي لولا صدى صوت سالومي يردّد في ذاكرتي: «وماذا بعد؟ أخبريني ما حدث بعد ذلك، أرجوك!» فتشجَّعت على طَرق الباب. أدخلتني الممرّضة، فخلعت حذائي الرياضيّ وانتعلت الشبشب الذي قدّمته إليّ من دون أن تتفوّه بأي تعليق، ومن دون حتى أن تقول لي: «الآنسة سالومي في انتظارك». إنها تعليمات سالومي. نعم للصمت، ولا للكلمات المبتذَلة.

كانت الغرفة تشعّ بأشعة شمس بعد الظهر، فسُررت بتحديد موعدنا في تلك الساعة. كنت أفضّل ذلك الوقت على الظلمة والبرودة ورائحة المرض. كما كانت الغرفة تعبق برائحة الشاي المنكّه بالياسمين، والذي حضَّرته لنا الممرّضة، وبخاره يتصاعد فوق طاولة ورق اللعب الموضوعة إلى جانب سالومي. كنت ألتقيها للمرّة الثانية. ومع ذلك، بدا لي كأن هذا النمط يصبح عادة. أُحبّ هذه الأنماط بسبب ما تولّده فيَّ من رغبة في رواية القصص، ومن لهفة ملحّة، مثل تلك التي تتسبب في ارتجاف اليدين. قد أبدو مغرورة في ما سأقوله، لكنني كنت كلما وصلت إلى أمام مبنى سالومي، أشعر كأنه قُدّر لي أن أهب حياتها معنًى. لقد أحببت ذلك الشعور. ورحت أفكّر في القصة التي سأرويها لها، عندما خطوت عتبة منزلها: هل أتابع سرد قصّة السيد شو، أم أروي لها قصة الآنسة كيتي، أم أؤلّف لها قصة قاتل سفّاح؟ وقررتُ، في ذلك اليوم، أن أخبرها عن كيتي.

القصة الثانية

التي أرويها لسالومي، أيار/مايو ٢٠١٦

وصلت كيتي، في ذلك الصباح باكرًا، إلى صالون التجميل. كانت السيدة ليم تتحضّر لاستقبال زبوناتها بعد أن جهّزت المقاعد والمناشف ولوازم التجميل، وملأت الغلاّية بالشاي الأخضر. صالون السيدة ليم ليس واسعًا، لكنه منظَّم، ويستقبل السيدات المتقدّمات في السنّ، واللواتي ترغب كلٌّ منهنّ في تسريح شعرها، أو صبغه، أو تزيينه. تنتمي معظم زبونات السيدة ليم إلى الطبقة الاجتماعية نفسها، وهي تعرف اسم كل واحدة منهن وكنيتها، وتعرف بعض أسرارهنّ، من تلك التي يُفضَى بها عادةً إلى مزيّنات الشعر واختصاصيات التجميل. شعرت السيدة ليم بشيء من الغرابة لحظةَ وصول الآنسة كيتي المفاجئ إلى الصالون. فكيتي، حتى اللحظة الأخيرة، كانت لا تزال مجهولة، ولم يُسمَع باسمها إلاّ في وقت متأخّر، أي بعد مرور شهر أو شهرين على ظهورها، ربّما بسبب رواج الشخصية الكارتونية اليابانية الشهيرة التي تحمل الاسم نفسه، أو لأن السيدة ليم سمعت أحدًا يناديها به. وأثار حضورها بلبلة في الصالون، فطالت التعليقات

المتعلّقة بها، وطرحت موظفتا السيدة ليم، جو ـ أون ويبري، فرضيات بشأنها لا تمتّ إلى المنطق بصِلة.

«انظري كم هي نحيفة، لا شكّ في أنها من الشمال. تبدو قروية. لا، يستحيل أن تأتي من مكان بعيد. هي حتمًا من المدينة. يا لجرأتها! أتت إلينا من دون مقدّمات كما لو أنها من سكان الحيّ. ماذا قلتِ؟ من المدينة! وهل أنت، ابنة بينغوول، ستعرفين التمييز بين ابنة القرية وابنة المدينة؟ لا شيء ينقصها، في كل الأحوال، لتكون من هنا. هل رأيت الثوب الرماديَّ الذي ترتديه؟ نظيف، ونقيّ، وهذا دليل كافٍ على أنها لم تتمرَّغ في وَحل القرى. كما أنها تعرف الحيَّ تمامًا. لا بدَّ من أن تكون من سكان المبنى الكبير هنا، بالقرب منا؛ مبنى غود لاك!؛ أو ربما أتت من مطعم المعكرونة الباردة، أو من صالة القمار. صالة القمار؟ أيّ كلام هذا! وماذا ستفعل هناك وسط السكارى! لست متأكّدة مثلك. أعتقد أنني رأيتها، من قبلُ، قرب الكنيسة المسيحية. لعلّها ضيفة القسّ. لا أستغرب ذلك، فهي تبدو مرتاحة في المكان الذي يُؤويها. أنتِ التي تقولين أيَّ كلام. لمَ لا تكون بوذيةً والتقيتِها في معبد جوغيسا أو في نامسان، في أثناء زيارتك المعبدَين. وماذا تفعل هنا؟ هذا الصالون لا تقصده السيدات الراقيات. لا تقصدنا إلاّ المتزوجات كبيرات السن من الحيّ». كلام فارغ! أخرستهما السيدة ليم، «أنتما فعلًا ثرثارتان. هيّا إلى العمل، هناك مناشف للغسيل ومقصّات ولوازم للتلميع. لم أوظّفكما لتُثرثرا عبثًا، وتؤلّفا الأكاذيب عن زبونتنا، أو بالأحرى مسافرتنا».

أصبح لقبها، هكذا، المسافرة. لا كيتي، ولا كيلي، ولا أيّ شيء آخر، من هذا القبيل. باتت المسافرة، وكم لاقَ بها ذلك اللقبُ.

«هل تعرفونني؟» «هل تعرفون اسمي وعنواني؟» «إذا قرأ أحدكم هذه الرسالة، فيُرجى الردّ على العنوان نفسه»: «يرجى الاتصال بالرقم: ...٢ ١٠» (وتبع ذلك رقم هاتف، لكنني لن أذكره هنا لتفادي الاتصالات غير اللائقة أو المحرجة). هذا هو نوع الرسائل التي حملتها المسافرة حول عنقها، في حقيبة صغيرة مصنوعة من ضفائر القشّ، كانت تشبه محفظة النقود أكثر مما تشبه الحقيبة. وكانت السيدة ليم صاحبة الفكرة، لا لأنها تهتمّ فعلًا بأصل المسافرة أو بالأحداث التي تعرَّضت لها سابقًا، لكن الغموض الذي كان يحوم حولها، والجانب المبهَم والمهيب بحسب تصورها، أثارا لديها كثيرًا من الفضول. لم تكن السيدة ليم ممن يؤمنون بالصُّدَف، وكان يستحيل إقناعها بعكس ذلك. لا بدَّ من وجود سبب أو معنى أو غاية وراء كل شيء، لذلك لا يمكن لمسافرة أن تصل يومًا إلى حيّها وتزورَها في محلّها في أسفل مبنى غود لاك!، من دون أن يشير ذلك إلى تغيير في النظام القائم، أو إلى تحرّك في الطاقة من أجل إحداث أمر مفاجئ قد يكون مثيرًا للقلق. «ستأتي، في النهاية، من مكان ما»، ختمت السيدة ليم حديث الموظفتين، «أو ربما أرسلها أحد إلينا، اسأليها بنفسك»، مازحتها إحدى الزبونات. وكانت امرأة خمسينية بدينة تتردّد إلى الصالون لتزيّن شعرها، لكن السيدة ليم لم تحبَّها يومًا، وكانت تحتقرها كونها زوجة قسّ الكنيسة المجاورة، ولأنها بخيلة لا تكفّ عن الجدال في السعر، وخصوصًا أنها كانت تطالب بتدليك عُنقها الغليظ بعد الانتهاء من تسريح شعرها، وكأنه جزء من الخدمة الأساسية. «تصوَّري أنني كنت أنوي ذلك». خطرت حينها للسيدة ليم فكرةُ وضع الرسائل في تلك الحقيبة الصغيرة.

ظلّت الحقيبة حول عنق المسافرة غيرَ ملحوظة أسابيعَ طويلةً، فبقيت الرسائل الموجزة بلا ردّ. وتوقّفت السيدة ليم، مع مرور الوقت، عن التفكير فيها. وعادت الآنسة كيتي، ذات يوم، إلى الصالون؛ دخلته بخطوة واثقة كما لو أنها تعرف الجميع، وجلست حيث كانت معتادة، على المقعد المكسوّ بجلد المولیسكين الأسود، تنتظر مساعدة، فتحمَّست السيدة ليم إلى درجة لم تسمح لأحد بالاقتراب منها. وأحضرت لها طبقًا جاهزًا من كريات الأرزّ والسمك، ووضعته أمامها. «لا بدَّ من أنك جائعة من كثرة التنقلات. تناولي هذا الآن لنتحدّث قليلًا بعد ذلك». لكن التحدُّث قليلًا حمل معنى أكبر من المقصود، لأن السيدة ليم لم تكن تتوقع أيَّ محادثة. تركت المسافرة تتناول وجبتها، وراحت تصفّف شعر زبونتها؛ امرأة متقدّمة في السنّ، تعاني مشكلة صغيرة في السمع، قررت يومها صبغ شعرها باللون الأزرق. تابعت الموظفات عملَهن، إلا أنهن كنّ، بين الحين والآخر، يُلقين نظرات عليها لمراقبة تصرفاتها. تناولت كيتي طبقها بهدوء كأنها لم تكن على عجلة من أمرها. لا تبدو جائعة؛ فكّرت السيدة ليم. وهذا دليل على أنها متشرّدة غير عادية. لا بدَّ من أن يكون لها مكان يُؤويها، وعاداتٌ تتَّبعها، وشخصٌ يرعاها. اطمأنّت السيدة ليم إلى ذلك، وزاد فضولها، في الوقت نفسه. لكنْ، ما الذي أتى بها إلى هذا الصالون، إن كانت تنعم بمأوى، ومحاطةً بأحبّائها، وليست في حاجة إلى المساعدة، وما الذي يجعلها تجلس على المقعد هناك وتنتظر؟ راحت تتصوّر المسافرة على عكس ما تبدو، كأنها روح من العالم الآخر تسكن جسمًا؛ روح عرفتها في الماضي وها هي تعود

بعد سنوات من النسيان لتستعيد مكانها على الأرض. استعجلت السيدة ليم، عندئذ، إنهاءَ تحضيرات الصبغة الزرقاء، تاركة زبونتَها في الانتظار تحت الخوذة البلاستيكية، وأسرعت إلى عمق الصالة لتحادث المسافرة الجالسة على المقعد.

ما إن أنهت الآنسة كيتي طبقها حتى تثاءبت وتكاسلت، شبهَ غافية فوق مقعدها. ألقت برأسها على مخدّة الظهر، وأغمضت جفنيها جزئيًّا، سامحةً للنور بالتسلل إلى قزحيتيها. أسرعت السيدة ليم إليها عند رؤيتها، وحاولت لمس عنقها بأصابعها، لكن رائحة الصبغة الحمضية المزعجة دفعت الآنسة كيتي إلى الابتعاد. قالت، حينها، السيدة ليم: «آه، عفوًا آنستي، أنت محقّة. هذه الرائحة مزعجة. سأغسل يدَيَّ». وغسلتهما فوق الحوض عند المقعد. وقرفصت قبالتها، لتكون أقرب إلى وجهها، بعد أن احتارت في اختيار الوضعية المناسبة. «لنرَ، أيّ رسالة أحضرت». نزعت حقيبة القشّ بلطف عن عنق المسافرة. وما إن فتحتها، حتى رأت ورقة مطوية، لا تشبه تلك التي تركتها قبل بضعة أيام، فنبض قلبها من الحماسة. كانت الورقة الجديدة رقيقة، يميل لونها إلى البنفسجيّ، وتتضمَّن بضع كلمات كُتبت بقلم لباد في خط طفولي.

أسكن في الطابق الخامس عشر من المبنى،

لا اسم لي، ولا عائلة،

فمَن أكون؟

التفّت الموظّفات حول السيدة ليم، في محاولة لقراءة الرسالة عبر اختلاس النظر إليها من أعلى كتفها، لكنها لم تسمح لهنَّ بذلك، فوقفت مجدَّدًا، وأعادت طيَّ الرسالة بحذر لتضعها في جيب مئزرها.

«ماذا تقول الرسالة، أخيرًا؟» سألت يون الأصغر سنًّا. «صحيح، بمَ أجابوا؟» علَّقت الأخريات. وانضمت إليهن الزبونةُ ذات الغطاء البلاستيكيّ، والتي ترغب في صبغ شعرها باللون الأزرق، وسألت: «ماذا يحدث؟» حاولت إحداهنّ شرح الموقف. «كل شيء على ما يرام، يا عمّة، وصل الردّ. هذا كل شيء». فتذمَّرت العجوز: «حسنًا، حسنًا، لكنني ما زلت أنتظر صبغتي».

إلاّ أن الآنسة كيتي، الباعثة على ذلك التطفُّل كلِّه، لم تقُم بأيّ ردة فعل، واكتفت بالاستلقاء فوق المقعد، مُسندة رأسها إلى ذراعه، وراحت تنظر إلى الجهة الأخرى.

بقيت كيتي، على هذا المنوال، تتكاسل وتتثاءب فوق المقعد طوال الصباح، وخلالَ جزء من بعد الظهر. وقرَّرت السيدة ليم وضعَ رسالة ثانية، لمّا حان موعد الإقفال، فانتظرت أن تنتهي الموظفات من تنظيف الصالون، وإعادة اللوازم إلى مكانها، والرحيل بعد ذلك. كان الليل قد أوشك على الهبوط، وبدأت الأنوار تشعّ، الواحد تلو الآخر، وبات يُسمَع من بعيد هديرُ السيارات التي يستقلّها سكان المبنى عائدين إليه بعد يوم عمل طويل، ويصدح بائع البرتقال، بكلامه المعسول عبر مكبّر صوت، وقد استقرّ بعربته الصغيرة عند

رُكن الشارع المزدحم. كتبت السيدة ليم، عندئذ، رسالتها. ووجدت، بعد التفكير مليًّا، أن الوقت قد حان لذكر اسم كيتي فيها:

أُدعى كيتي،
وأتردّد إلى صالون التجميل في أسفل مبنى غود لاك!
إن كنت تعرف شيئًا عني، فلتُخبرْني!
وشكرًا».

طوت الورقة، ثم وضعتها داخل الحقيبة الصغيرة، وربطت الحبل حول العروة وانتظرت قليلًا. لكن المسافرة كانت في انتظار تلك اللحظة، لأنها سرعان ما نهضت عن المقعد، وخطت بضع خطوات، وخرجت من الباب وبلغت الرصيف. أسرعت السيدة ليم وراءها لتراقب تحركها، لكنها لم تلحق بها، لأن الساعية توارت خلال ثوانٍ وراء الأشجار التي تحيط بالمبنى. فشعرت السيدة ليم بقلبها ينبض بقوة داخل صدرها عند تفكيرها في احتمال أنها لن تراها من جديد، وأنها قد تكون المرة الأخيرة التي تأتي فيها إلى الصالون. وعادت في ذلك المساء إلى منزلها، ووجدت زوجها وابنتها في انتظارها، فحرصت على أن تُخفي الأمر عنهما. اعتقدت أنها لو باحت به فستغامر في خسارتها، كأنها حلم سيتلاشى بعد الحديث عنه.

كنا في ساعة متقدّمة من بعد الظهر ونور الشمس قد غاب عن الغرفة فأظلمها، باستثناء جدار واحد علّقت عليه سالومي لوحة لصورة عائلية، ذات إطار أصفر. لم أتجرّأ على التوقف عندها للتحديق فيها. وعلى الرغم من ذلك، فإنني لمحت، وأنا مارّة أمامها، امرأةً طويلة القامة، قاسيةَ الملامح، ترتدي بذلة نسائية، وتقف أمام لوحة لمنظر طبيعي يصوّر شلالات متدفقة ومبانيَ قديمةً، مثل تلك التي نجدها عادة لدى المصوّرين الفوتوغرافيين. ففكرت في أنني قادرة على صوغ قصة عن تلك المرأة، كأن تكون هي أيضًا مسافرة عاشت سابقًا في أستراليا وماتت غرقًا، لأن الموت غرقًا سيُعطي القصة طابعًا رومنسيًّا حتى لو أنها تتحدّث عن واقع رهيب إن فكّرنا فيه مطولًا. لكن سبق لي أن فكّرت مطولًا في أثناء صوغ قصة كيتي.

أرادت سالومي مزيدًا من الشاي مُعطّرًا بالياسمين، لكن الممرضة لم تستجب بسرعة (ربما لأننا كنا في ساعة تبديل المناوبة)، فقمت بتسخين الماء المتروك فوق الطاولة الموضوعة قرب النافذة، ثم سكبته في فنجان الشاي. فناجين سالومي عادية، تشبه تلك التي نسرقها من كافتيريا الجامعة، وهي مصنوعة من الحجر الرملي الصلب، وخالية من أي زخارف، لكنني أعتقد أنها تعني الكثير لها.

«حدّثيني الآن عن كيتي، ولاحقًا تكملين قصة حمَام السيد شو»، أليس كذلك؟

وراحت تحتسي الشاي، جرعةً جرعةً، فلاحظتُ أن يدها اليسرى ترتجف وهي تحمل الفنجان، وقد ألقت بيمناها في حضنها كأنها ما عادت تصلح للاستعمال. شعرت سالومي بي وأنا أحدّق فيها، فقالت: «لو تدرين، هذا أكثر ما يصعب عليّ تقبُّله»، وظهرت على وجهها ملامح الخيبة التي تصيب كل من يفشل في إخبار أمر مضحك: «أشعر بأنني أتلاشى رويدًا رويدًا؛ أخسر جزءًا من نفسي يومًا بعد يوم. هناك بعض الجوانب التي تضمحل فيّ».

لم أعلّق على الموضوع. كنت أؤمن بأن شخصًا، مثل سالومي، لا يحتاج إلى مواساة أو شفقة، بل إلى قصص تحمله إلى دنيا الأحلام.

أصبحت السيدة ليم تترقَّب زيارة الآنسة كيتي كلَّ صباح. وتشعر، في خضمّ ثرثرة العاملات ونواح الزبونات، بأن نهارها لن ينتهي، في اليوم الذي تغيب فيه الصغيرة عن الصالون، فتقول: «آه، لو تدرين الشرّ الذي يسيطر على مشاعر ابني. أفكّر، أحيانًا، في أنه سينهال عليّ ضربًا»؛ أو تردّد: «يتقاعد زوجي قريبًا، ويريدنا أن نسافر حول العالم؛ مانيلا، دبي، بومباي. يعتبرني الكل محظوظة، لكنني لست مهتمّة، بصراحة، وأفضّل أن أبقى في منزلي وأسقي أزهاري». كانت السيدة ليم تسخر من أسفارهنّ مع أبنائهنّ وأزواجهنّ، إذ لديها ما يكفي من الهموم، ناهيك عن موضوع الآنسة كيتي الذي ظهر مؤخرًا في حياتها. فهي لم تكفَّ لحظةً عن التفكير في الردّ الذي ستحمله الفتاة الصغيرة هذه المرة في حقيبتها. ولم تستطع الانتظار عندما أتى الردّ، وأسرعت في إنهاء عملها، من تسريح وصبغ وتدليك فروة الرأس، ملبّيةً رغبات زبوناتها، ثم أغلقت ستار الحماية وعادت مسرعة إلى الآنسة كيتي.

«لنرَ: أيَّ ردَ تحملين؟» مدّت الآنسة كيتي عنقها حتى تفكَّ السيدة ليم رباط الحقيبة، وتجد في داخلها ورقة صغيرة كُتب فيها:

«المسافرة صديقتي أيضًا».

فأسرعت السيدة ليم في الرد:

«إذًا، تفَضَّلنَ بزيارتي في صالون التجميل، في أسفل المبنى».

ما إن أقفلت حقيبة القشّ حتى خطت الآنسة كيتي ثلاث خطوات، وأصبحت في وسط الشارع، ثم اختفت وراء الأشجار من دون أن تطالب بمستحقاتها؛ أي طبق السمك وكوب الماء. وعادت، في اليوم التالي، تحمل رسالة أخرى كُتبت بخط آخر:

«أنا أيضًا صديقتها، لكنني لا أسكن في هذا المبنى. أقصده فقط لكيّ ملابس زوجين متقدّمين في السنّ».

فأجابتها السيدة ليم:

- هل تعرفين أين تسكن؟

فجاء الرد:

- لا أدري، ربما في الطابق الأرضي، لأنها تأتيني مستقلّةً المصعدَ.

وظهرت، بعد يومين، رسالةٌ أخرى:

«مَن يدري ماذا تريد؟ ومن يدري لمَ تسافر؟»

تلا ذلك ردٌّ ساخر جعل السيدة ليم تشك في العجوز المتذمّر الذي يقيم بالطابق الأرضي، وهو على الأرجح أحد النواطير:

- دعيها بسلام، فهي تحاول أن تعرف مَن تكون!

على الرغم من أن الملاحظة صدرت عن سكّير عجوز نصف مجنون، فإنها تركت صدًى في رأس السيدة ليم، بلغ حدَّ أن يصير هاجسًا. فزاد إصرارها على كشف حقيقتها، وأصبحت تعود كل مساء إلى منزلها لتعزل نفسها في المطبخ وتركز في التفكير. وشعر زوجها بالقلق لأنها لم تعد تجلس مثل السابق قبالة التلفزيون لتشاهد مسلسلاتها المفضَّلة، فسألها:

«ما بك، هل تعانين مشكلات مادية؟»

لم تكن مخيّلة السيد كانغ خصبة، لذلك كان يحصر مشكلات زوجته في المال، أو في الصحة. وأدرك أن مشكلتها أعظم كثيرًا عندما تجاهلت سؤاله، فقال:

«لمَ لا تجلسين معنا يا عزيزتي؟ سيبدأ مسلسل 'الزهرة المتوحشة' في الحال!»

فرفعت السيدة ليم كتفيها:

«دعني قليلًا. عليّ أن أفكر في أمر».

فيمَ ستفكرين؟

شكّ السيد كانغ في ما سمعه، لذلك تابع مصرًّا: «هل تواجهين مشكلة ما؟ هل ذهبت لرؤية الطبيب؟»

كانت السيدة ليم قد لمست كتلة في ثديها الأيمن، قبل ثلاث أو أربع سنوات، إلا أن الزرع الطبي أظهر أنها مجرد كتلة دهنية. وعاش الثنائي قلقًا رهيبًا دام بضعة أسابيع، إلى حين ظهور النتيجة. ومازح السيد كانغ زوجته، عندئذ، وهو يكبرها ببضع سنوات، وقال في محاولة للتخفيف من قلقها:

«لن أتدبَّر أمري، مثل الباقين، بوجود كل أولئك الأرامل في سيول، إن متّ قبلي». لكنه لم يُفلح، فظهرت ضحكة سريعة على وجهها.

«لا، يا عزيزي، اطمئنَّ، فأنا على ما يرام. كلّ ما في الأمر أن الفتاة كيتي...».

وكانت السيدة ليم قد حدَّثت زوجها عنها، مرّةً أو اثنتين، لكنه لم يُبدِ حينها أيَّ اهتمام.

«حسنًا، ما بال تلك الآنسة كيتي؟»

تردَّدت السيدة ليم في متابعة كلامها، إذ لم تجد في زوجها المستمعَ المثاليَّ إلى مثل تلك القضية.

«لا أعتقد أنها تتردَّد علينا من دون غاية».

ـ كيف من دون غاية؟ ماذا تقصدين؟

ـ أقصد أنها... لكن الكلمات لم تتدفق بسهولة من فمها.

«لا أدري لمَ أشعر بالخوف عندما تنظر إليّ، كأنها تريد أن تُعْلمني بشيء».

لم يأخذ السيد كانغ ما قالته زوجته على محمل الجدّ:

«يا للغرابة! وماذا يمكن أن تحمل إليك؟».

وأضاف مؤكدًا لزوجته أنه لم يفهم قصدها ولو قليلًا:

«اطرديها من الصالون، في حال أزعجتكِ. الأمر بسيط».

وعاد ليجلس قبالة التلفزيون، واختار محطة أخرى تبثّ نشرة أخبار مسائية، عندما أدرك أن زوجته غير مهتمة بمشاهدة المسلسل. كان المعلّق يقرأها على مراحل، بنفور مخيّب للأمل.

استيقظت السيدة ليم من نومها في تلك الليلة، ولديها انطباع بأنها كشفت جزءًا من سرّ كيتي الغامض. إلا أن ذلك الانطباع زال بسرعة من كثرة التفكير.

لم تزرها الآنسة كيتي صدفة، بل ثمّة من أرسلها بالتأكيد، وبعث معها تلك الرسائل. لكن الرسائل لا تعني الكثير، بسبب تنقّلها من يد إلى أخرى، باستثناء نَسج شبكة علاقات بين أشخاص لا يعرفون بعضهم البعض. تذكّرت فجأة السيدة يانغ يو-مي، المستأجرة في الطابق السادس في المبنى ب.

كانت قد تعرفت إليها بعد أن قصدتها في الصالون، لا لتسرّح لها شعرها، بل لتطلب منها عملًا، في إثر رحيل زوجها عن البيت من دون ترك عنوان، وبعد تعرّض ابنها الوحيد لحادث أقعده ومنعه من كسب لقمة العيش، لذلك كانت تحاول الصمود على قدميها. تعاطفت السيدة ليم حينها معها، لكنها عجزت عن توظيفها في

الصالون أو إيجاد أي عمل آخر لها، فنقدتها بعض المال الذي شكرتها عليه السيدة يانغ بتواضع. ولم تسمع عنها بعد ذلك الحين شيئًا، فشكّت في أن أحوالها لم تكن لتتحسن. وعادت الآنسة كيتي إلى الصالون ذات يوم، قرابة الساعة الرابعة بعد الظهر، وهي تحمل رسالة من السيدة يانغ، كتبتها على ورقة ممزَّقة من دفتر صغير، بخط سيّئ وحروف حمراء:

أتمنى لو نلتقي في الحياة المقبلة. أتمنى ذلك!

يانغ يو-مي، الطابق السادس، المبنى ب».

ما إن قرأت السيدة ليم الرسالة حتى أسرعت إلى إغلاق الصالون من دون إضاعة الوقت في إطفاء الأنوار وتعطيل الخوذات الكهربائية. وركضت برفقة فتياتها إلى المبنى ب من عمارة غود لاك!، وانتظرن في المدخل هبوطَ المصعد. وأدركت، في تلك اللحظة، وجودَ كيتي برفقتهن، وفهمت أنها تعرف الطريق. هل يجوز أن تكون كيتي مرسال السيدة يانغ يو-مي؟ لم تعرف السيدة ليم أيَّ باب تطرق، عندما وصلن إلى الطابق السادس. هل هو الباب إلى اليسار، أم إلى اليمين، أم في الوسط؟ فأشارت كيتي إلى الباب الصحيح، وراحت السيدة ليم تنقره نقرًا. كانت تقرع أولًا، ثم تقرّب أذنها من الباب لتسمع ما في الداخل؛ ضجة تشبه التأوّهات أو التنهّدات، إذا جاز الوصف.

«افتحوا الباب،» قالت السيدة ليم، «جئنا للمساعدة. افتحوا من فضلكم».

شقَّ أحد الجارَين، لاحقًا، بابَه، ليقول لها بلهجة باردة: «من الأفضل أن تتصلي بالشرطة».

لكن السيدة ليم لم تُعره انتباهها، وتابعت القرع على ذلك الباب العاديّ، المصنوع من الخشب الرقائقي، وقد لُصقت إلى جانب مقبضه صورةُ تنّين أو عنقاء، أو ما شابههما.

«سيدة يانغ يو-مي، سيدة يانغ! افتحي لي. جئت لمساعدتك. أنا مزيّنة الشعر، مالكة صالون التجميل في أسفل المبنى، جئت إليك برفقة الموظَّفات. سبق أن التقينا من قبلُ. افتحي، أرجوك».

سمعت عندئذ مزيدًا من الضجّة، تلاها تزحلق لمزلاج الباب، الذي فُتح ببطء كما لو أنه من الوزن الثقيل، فتسللت الآنسة كيتي إلى الداخل، وسمعت السيدة ليم السيدةَ يانغ تصرخ:

«آه، هذا أنتِ. عدتِ أخيرًا، شكرًا لكِ!»

فهمت أن كلامها موجَّه إلى المسافرة، فشعرت بخيبة أمل صغيرة سرعان ما تلاشت.

كانت السيدة ليم قد تركت المزيّنات عند الباب كي لا يزيد عدد الشهود. الغرفة في الداخل مظلمة، والستائر المعدنية مسدَلة بإحكام، والأرض مكسوّة بالجرائد والأوراق، وأكياس الزبالة مكدَّسة في الممر الصغير، فبدا الصالون مسرحًا لعملية سطو قلبت المكان رأسًا على عقب. كراسٍ مقلوبة، زهريات معكوسة، قناني مشروب سوجو وأطباق متسخة مرمية على الأرض. وبان قرب النافذة غطاءٌ ملفوف على شكل كرة، بيَّن المكان الذي تنام فيه السيدة يانغ. أرادت السيدة

ليم أن تُشعل النور، لكن التيار الكهربائي كان مفصولًا. لعلّ شركة الكهرباء قد فصلته بعد أن عجزت عن تحصيل الفواتير في موعدها. ولما تأقلم نظرها مع الظلمة تمكّنت من رؤية السيدة يانغ طريحةَ الأرض، تلقي بظهرها إلى الحائط، وبيديها إلى فخذيها، وتحني رأسها كأنها تقرأ. لو لم تنهض السيدة يانغ لفتح الباب لاعتقدت السيدة ليم أنها ميّتة، فشعرت برعشة طفيفة في عمودها الفقريّ، نابعة من الخوف من المجهول.

فجلست قرب السيدة يانغ وراحت تحدثها:

«سيدة يانغ يو-مي، سيدة يانغ يو-مي! هل أنت بخير؟»

ولم تكن كذلك طبعًا، بدليل رائحة الكحول التي تفوح في الشقة، والظلمة التي تعمّ المكان وتعكس شعورها بالقلق ورغبتها في الموت. دخلت الموظفات بعد ذلك من الباب، ولاحظت السيدة ليم خروج الآنسة كيتي من الشقة مثل خط أصفر شاحب يتسلل عند الجوانب.

«افتحن الستائر!» أمرت السيدة ليم.

ملأ النور الغرفةَ ليسلّط الضوء على الفوضى، ويدفع بالسيدة يانغ إلى خفض رأسها وإخفاء وجهها وراء خُصل شعرها المتهدّلة كما لو أن أشعة الشمس أصابتها في عينيها وشنَّجت يديها الشاحبتين داخل خُصل شعرها الرمادية.

أمضت السيدة ليم السهرة إلى جانب السيدة يانغ، وبقيت الفتيات قربها، يَرعَيْنَها ويقدّمن إليها ما يروي عطشها. وبدأت الأكبر

سنًّا بترتيب الشقة، فكوَّمت كلَّ ما عليه أن يُرمى في طيّ النسيان. ارتاحت السيدة يانغ عندئذ، وتمدّدت فوق الأرض، وفتحت شفتيها كما لو أنها تأخذ نفَسًا عميقًا بعد أن غاصت في أعماق البحر. وعلى الرغم من ذلك، فإنها لم تتلفَّظ بكلمة واحدة. من الواضح أنها أرادت الموت خنقًا بالغاز الذي كان ينبعث في المطبخ، أو بابتلاع الكلور، وقد ظهر وعاء جاهز للاستهلاك قرب الباب، أو ربما بالقفز من النافذة لأن الباب المطلّ على الشرفة الصغيرة كان مشقوقًا. مكثت النساء عندها طوال السهرة إلى وقت متأخّر من الليل، ثم اتصل السيد كانغ وجاء بعد ذلك للزيارة، فظهر متأثّرًا لأول مرة، وقد أحضر معه باقة من أزهار النرجس، أوراقها لا تزال مطبقة وغير متفتّحة، فاعتبرتها السيدة يانغ الأكثر روعة في العالم.

مرّت أيام عادت فيها الحياة إلى مجراها الطبيعي، إلا أن السيدة ليم لم تتخلَّ هذه المرة عن السيدة يانغ، بل وجدت لها عملًا في محترف خياطة قريب من عمارة غود لاك!. وكأن اتفاقًا عُقِد بين نساء الحي من أجل الاتحاد بقوة، وعدم التخلي عن بعضهنّ البعض، حتى في غياب أي مشكلة تهدّد حيواتهنّ؛ فقد أقسمن على التواصل المستمرّ والتراسل عبر الهواتف النقّالة، وعلى القيام بزيارات سريعة لبعضهن البعض، ولو من دون سابق إنذار. والأمر الوحيد الذي سبّب حزنًا للسيدة ليم ولسكان الحي، بصورة عامة، هو اختفاء الآنسة كيتي ليلةَ قررت السيدة يانغ الموت؛ إذ لم تعد، بعد تلك الليلة، إلى صالون التجميل حاملةً أيَّ رسالة. واعتبر السيد كانغ أنها وجدت مكانًا جديدًا أقل اضطرابًا وأقلَّ مآسيَ، بما أن

القطط تفضّل الأماكن الهادئة. لكن السيدة ليم فكّرت في سبب آخر، حتى لو بدا جنونيًّا أكثر، إلا أنه يعطي تفسيرًا أفضل لمجرى الأمور: الآنسة كيتي أو المسافرة ليست هرة تقليدية. هي روح أو شبح أو ما شابههما. لو كانت مسيحية، لقالت إنها ملاك. ولو كانت سوداء بدلًا من أن تكون شقراء، لقالت إنها روح شريرة. لكن ميولها بوذية، وهو ما يفسّر انتقالها من حياة إلى أخرى، ومن عالم إلى آخر، لتنجز مهمات إصلاحية تعوّض بها عن خطأ ارتكبته في صباها، عندما تركت أختها الأصغر سنًّا تموت من اليأس. سبق للسيدة ليم أن سمعت بتلك الحادثة على الرغم من أنها لم تقع في عمارة غود لاك!، ولا في المبنى ب تحديدًا. سمعت عنها عبر التلفاز، أو قرأت عنها في الصحف. وهي قصة مغنية شابّة وُجدت ميّتة شنقًا في شقتها، في خضمّ الفوضى وقناني السوجو الفارغة. قد تكون تلك مجرد قصة أو أسطورة من تلك التي تُحكى في أحياء المدينة التي تشهد، مع انقضاء كل دقيقة، كمًّا من الأحداث الغريبة أو المثيرة أو الرهيبة، كل بحسب ذوقه.

توقَّفتُ عن رؤية سالومي بعضَ الوقت، لا لأنني نسيت أمرها، بل لأن دراستي في يونغسي والمحاضراتِ التي طُلب مني تحضيرها ثلاثَ مرات في الأسبوع، شغلتني معظم الوقت. حتى إنني لم أفتح مغلّف الـ٥٠٠٠ ون الذي أخذته منها، ربما بسبب شعوري بواجب إنهاء ما بدأت به أولًا، أو بسبب المرأة الضخمة التي تظهر حزينةً على تلك الأوراق النقدية، فتذكّرني بسالومي، ويُخيَّل إليّ أنها تقول لي بصوت جهوري: «لا تَنسيني! تعالي لرؤيتي!» و«لا تقسي عليّ!». كما أن الأجر الذي وفَّرته لي المحاضرات كان كافيًا لتسديد إيجار غرفتي. أمّا بالنسبة إلى سائر القضايا، فكنت أتدبَّر أمري، كأن أتناول الرامن والكيمتشي عند كل وجبة. تذكرت حينها جدّتي عندما كانت تقول إن «الإنسان قادر على العيش مع قليل من الكيمتشي، عند الفطور والغداء والعشاء! هذا ما كنا نتناوله في السنوات التي تلت الحرب، بعد أن عاقبت حكومة سينغمان ري سكانَ جيولا-دو بالمجاعة، بسبب اشتباهها في أنهم متمرّدون شيوعيون».

ثمة جديد طرق بابي. عاودت، خلال نزهة مع بعض الأصدقاء، لقاءَ السيد باك؛ الشابّ الذي يعمل في مكتبة جونغنو. خرجنا معًا عدّة مرات، فعرفت اسمه الحقيقي. لم يكن، طبعًا، السيدَ باك، بل السيد كو. وعلمت بأنه من جزيرة شيجو. وعلى الرغم من ذلك، فإنني ظلَلت أناديه بالاسم الذي أطلقته عليه، حتى لا أضطرّ إلى تشغيل ذاكرتي في كل مرة. ولقد وجد لنفسه اسمًا مسيحيًّا،

هو فريديريك، تيمُّنًا بفريديريك شوبان، لكثرة ما كان يعشق الموسيقى والعزف على البيانو.

كان من الطبيعيّ أن يحدّثني عن سالومي. لم يكن يعرفها حقَّ المعرفة. التقاها أولَ مرة عندما أوصل إليها الكتب التي أوصته بجلبها، وهي روايات بالإنكليزية والفرنسية، وكتب علمية وطبية، وأخرى في علم النفس. وفهم، في أثناء حديثهما، أنني قادرة على مصاحبتها، لا لأغيّر أفكارها، بل لأشاركها في عالم خياليّ. فالمريض، في رأي السيد باك، غالبًا ما يبني عالمًا خياليًّا ليعيش في داخله. وأعتقد أنه محقّ. طاردني وجهه أيامًا ولياليَ، فلم أنجح في مقاومته. أحببت كل شيء فيه، وخصوصًا عينيه اللوزيتين، السوداوين، البراقتين، الغارقتين خلف رموشهما المتناسقة. وذكرني حاجباه بأمي التي تقول: أكثر ما يجذب في الشابّ الوسيم هو الحاجبان الأسودان الفحميان المقوّسان. كنت أحبّ لون بشرته؛ سمراء مائلة إلى الاحمرار، وأعشق شعره القصير. وأحبّ أيضًا يديه الطويلتين والقويتين، وأطرافَ أصابعه المربّعة والمسنَّنة. اعترف لي مرة بأنه لا يقلّم أظافره على نحو مستدير، لأنه يفتقد الصبر. يكفيه أن يقطعها بالمقص ثلاثَ مرات: كلاك، كلاك، كلاك، لتصبح ما تبدو عليه.

ثم أصبحنا نلتقي عدة مرات في الأسبوع، خلال العطلة أو في ساعة مبكّرة من بعد الظهر، بعد أن ينتهي من العمل في جونغنو. وكنا، في كل مرة، نختار وجهة جديدة: حافة النهر؛ حدائق وسط المدينة. ونقصد حديقة الحيوانات، في جنوب المدينة، عندما يكون الطقس جميلًا. لطالما أحببت زيارة حدائق الحيوانات، ليس للتفرج على الحيوانات المحجوزة داخل الأقفاص. لا. فلقد أقسمتُ، وأنا طفلة، أن أفتح أبواب أقفاص كلّ حدائق الحيوانات ذات يوم، لأعطي تلك المخلوقاتِ البريئةَ المسجونة داخلها حريتَها؛ لأرى الحديقة نفسها،

وممرّاتها المتعرّجة والمسيَّجة بأشجار البلح والكاميليا، ولأمنح الناسَ الذين نلتقيهم داخلها، والأطفالَ الذين يركضون وهم يصرخون، والعجائزَ اللواتي يحاولن اللحاق بهم، والعشّاقَ الذين يجلسون في الخبايا المعزولة، ما يأكلونه.

أصبحت أقصدها اليوم برفقة شابّ وسيم، نجلس بأدب، الواحد إلى جانب الآخر، بعد أن نعبر الجادات شبه صامتَين، مكتفيَين بثرثرة اعتيادية تشبه الثرثرة المتقطّعة لأي حبيبين في مرحلة التعارف.

«فريديريك (بعد أن أصبحت أناديه باسمه الإنكليزي)، هل صحيح أن العشّاق يبحثون دومًا عن وجهة قريبة من المياه؟»

- وما أدراكِ؟

- لست أدري. لم أعرف الغرام بعد.

وأضفت قائلة، بعد التفكير قليلًا:

«لا أعتقد أن هناك مثَلًا كاذبًا، فالماء عنصر رومانسيّ. وكل قصّة حبّ تتضمّن عنصرًا مائيًّا: إمّا بحرًا، وإمّا نهرًا، وإمّا بحيرةً، وإمّا مستنقعًا».

«وإمّا مسبحًا»، قال فريديريك متهكّمًا.

شعرت، في تلك اللحظة، برغبة في أن يصطحبَني إلى شاطئ البحر، لكنني لم أجرؤ على الطلب. مدينة سيول كبيرة جدًّا، لكنها مصابة بالجفاف، بسبب كل تلك المباني والطرقات والسيارات والحافلات.

كنا نزور حديقة الحيوانات على الرغم من ذلك، ونقصد سياج القرود الخُضر. صحيح أنها كانت سجينة في قفص، لكنها تتسلّى وتتشاجر وتصرخ وتحبّ وتسرق الطعام من بعضها البعض، كما لو أنها بشر. وهي قادرة أيضًا على العيش في المدينة.

مشـيت إلى الداخل وأنا أتمنى الإمسـاك بيد فريدريك، لكنني لم أجرؤ. وسـمعت خَنْخَنة القرود وزقزقة العصافير تدوي فوق الأشـجار، فشـعرت كأننـي في حلم بعيد عن الواقع وعن همومه، وبعيد عن شرّ عمتي وفظاعة ابنتها.

رحنا نلتقط الصور بهاتفه. كانت صورًا سخيفة كالتي يلتقطها الآخرون؛ صورًا لنا نلتقطها بنفسينا، نَظهر فيها خدًّا ملاصقًا لخدّ، أو وأنا أومئ بعلامة النصر أو بقلب، من دون سبب وجيه. فيضيف إليها قلوبًا وغيومًا، ويملأها بكلمة سارانغ التي تعني الحب. وكتب، ذات مرة، على إحداها أجملَ ما كتبه أحد عني:

بِتنا، نجمتي الساطعة!

فتذكّرت ما أخبرتني به أمي عن والدها. كان هو من اختار اسمي؛ أرادني أن أسطع كنجمة من الداخل ومن الخارج.

كنا نبقى في حديقة الحيوانات حتى يحين موعد إقفالها؛ نتنزّه في الممرّات بين الناس، ونستمع إلى صراخ الصغار، وخنخنةِ القرود، ونقيقِ الببغاء. شعرت، للمرة الأولى، بأنني حرّة، وتصرّفت برفقته كالبلهاء. لم يخطر في بالي يومًا أنني قادرة على ذلك. كنت أترنّح على الأرجوحة، وأركض حول الأحواض، وأغنّي بصوت عالٍ أغنيةً لجومي وإد شيران، أو لأيّ شخص آخر. وكنت أُشعره بالإحراج كونه يحب العزف على البيانو ويعشق السيمفونيات ومعزوفات شوبرت الألمانية، فأفرح لذلك. كان فريديريك من النوع المتكلّف، فحتى لو ارتدى بنطال جينز وسترة رياضية فسيبدو كأنه يرتدي بدلة رسمية. فكنت أقدّره بسبب ذلك. لم أتمنَّ يومًا أن يكون صديقي مثل أولئك الوانغ جا، أو الملوك

الصغار الذين يفوح عطرهم أينما ذهبوا، ويُمضي واحدهم وقتَه في تلميع شعره. كنت أشعر معه بالأمان. لطالما بدا لي واثقًا بنفسه وبما يريده في هذه الحياة، على العكس مني تمامًا؛ فأنا كنت أجهل ماذا يخبئ لي الغد.

بدأ المال لاحقًا يشغل بالي. كان فريديريك، في البدء، يدعوني إلى كل مكان، ويدفع كل الفواتير في المطعم والمقهى، ويدفع أيضًا ثمن المواصلات. وطرح عليّ، ذاتَ مرة، سؤالًا شعرت في إثره بالانزعاج:

«بِتنا، كيف تدبّرين أمرك، وأمور الدراسة؟»

فأجبته:

«أحبّ دروس اللغة الفرنسية».

فابتسم وقال:

«لا، أقصد ما يتعلّق بالمال؟».

«كل شيء على ما يرام. لديّ ما يكفي من المال».

كنت أكذب طبعًا، وأكملت:

«صحيح أننا لسنا أثرياء، لكن عائلي تدعمني ماليًّا. كما أنني أتدبّر أمر مصروفي من الوظائف الصغيرة التي أقوم بها».

لم أرغب في أن يعرف أنني لا أتناول إلا الكيمتشي، ولا أن يرى الحيَّ الذي أسكن فيه. فكنت أراوغ، بسبب ذلك، في أجوبتي:

«أعيش داخل غرفة صغيرة في المدينة الجامعية في يونغسي. ليست فاخرة، لكنها مريحة».

- هل تتشاركين فيها مع أحد؟

- آه، لا، لست من هذا النوع. أجد معظم الطالبات قذرات، كما أنني لا أحتمل الشخير ليلًا!

بدأت في ذلك الوقت أخدع السيد باك، وأخبره بالأكاذيب عن حياتي. وهو كان، في المقابل، يعيش حياة منظُّمة: يسكن مع أبويه في حيّ راقٍ، ويستعدّ لامتحانات الحقوق، إلى جانب عمله في مكتبة جونغنو. كما أن والديه كانا سيشتريان له دراجة نارية هديةَ نيله شهادةَ الحقوق.

دفعني هذا كله إلى التظاهر بما لست عليه لأُطابق صورة الفتاة التي يرسمها في ذهنه؛ تلك البورجوازية ابنة موظَّف الدولة والمدرّسة الخاصة، ولأقطع صلتي تمامًا بجيولا-دو وبالصيّادين. إلا أنني حدَّثته مرة عن جدّتي التي انتقلت من الشمال للعيش، لاجئةً في بوسان، بعد أن خسرت زوجها في الحرب.

تلك القصة لم تكن كذبة، بل كانت امتدادًا للقصص التي أرويها لسالومي إلى أن يثقل جفناها تحت وطأة النعاس، وتتسارع دقّات قلبها.

كانت علاقتي به غريبة بعض الشيء. لم نتحدَّث يومًا عن حياتنا الخاصة، فلم أعرف، بسبب ذلك، شيئًا عنه. كنا نستقلّ سيارة أجرة، في نهاية كل لقاء لنا، ليوصلني إلى باب الجامعة حيث يُفترض بي أن أعيش، ويتابع هو طريقه. لم يذكر يومًا عنوانه أمامي، فقرَّرت إغاظته والتطفُّل عليه، في الوقت نفسه؛ فالتطفل ميزة مؤنَّثة بامتياز. وقلت له ذات مرة:

«اصطحبني إلى منزلك. أريد أن أتعرّف إلى الحيّ الذي تعيش فيه».

وشعرت بارتباكه على الفور.

«ليست فكرة صائبة. المكان بعيد، وقد يروننا معًا».

أصابني ردُّه في قلبي، وهو لاحظ ذلك، لأنه سرعان ما حاول التبرير:

«معارفنا كثر. وتعرفين كيف يستغلون الفرصة للثرثرة».

لم أحبَّ تبريره أيضًا. كنت أفضّل لو دعاني إلى لقاء والديه، فكنت أنوي ردَّ الدعوة، في كل الأحوال. فوضعت فورًا حدًّا لذلك النقاش:

«حسنًا، حسنًا، ليس عليك أن تبرّر. لقد فهمتك جيدًا».

أما أنا، فلم أحدثه يومًا عن عائلتي. ذكرت مرة واحدة أمامه جيولا-دو، وتفاديت الحديث عن عمتي وابنتها بايك هوا. حتى لو كان مستبعَدًا احتمالُ لقائه إياهما، إلا أنني كنت لا أزال أخشى تلك الشقّة التي عشت فيها معهما، وأرى فيها وكرًا للأفاعي.

بقينا أنا والسيد باك نخرج في نزهات طويلة، نجول خلالها في أنحاء المدينة. فهو ممن يحبّون المباني الأثرية، فكنا نزور المعابد القديمة فوق الهضاب العالية والمتاحف. وعلى الرغم من أنني لم أهتمَّ يومًا بالهندسة المعمارية، فإنني كنت أصغي إلى شرحه عن النتوءات الحجرية، وتداخُل القرميد القديم ببعضه البعض فوق السطوح. وكانت تلك النزهات كلُّها تنتهي بزيارة مقاهي هونغداي وسينشون لاحتساء القهوة. كنا نجلس على الشرفات ليتمكّن فريديريك من التدخين. وهذا ما دفعني مجدّدًا إلى معاودة التدخين. كنا نشتري السجائر بنكهة النعناع؛ تلك التي تُقرَص بين الإبهام والسبّابة لتتحرَّر منها خلاصة النعناع وتمتزج بالتبغ. ونشرب القهوة مُرّةً، حتى ارتبطت به ذكرى القهوة والسجائر ارتباطًا وثيقًا، ليس فقط بسبب لون عينيه وبشرته، وإنما أيضًا بسبب الغموض والمرارة اللذين تتسم بهما شخصيته، وهذا أكثر ما كان يسحرني فيه. كنا نبقى على شرفات المقاهي غير آبهَين لتنقُّلات الطلاب في الحيّ، نحتسي القهوة وندخّن السجائر من دون التلفّظ بكلمة. كنت أفضّل لو أنّ الأجواء أكثر رومانسية بيننا،

لكنه لم يقبل يومًا بذلك خوفًا من الظهور برفقتي. وعلى الرغم من أننا أصبحنا قريبَين، أحدنا من الآخر، وبدأنا نتبادل عبارات الغزل علنًا في الحدائق وعلى المقاعد عند ضفاف النهر، فإنه كان يرفض الإمساك بيدي. لم يسمح بتجسيد مشاعرنا، في أي طريقة، تماشيًا مع نظرته إلى الحياة الزوجية. ففي رأيه: «هذا ليس من شأن الآخرين».

كما كان هو من يفرض جدول مواعيد لقاءاتنا: «ليس غدًا ولا بعد غدٍ. سأكون مشغولًا».

- وماذا إن انشغلت بدوري في سائر الأيام؟

كان ينظر إليّ حينها ببرودة، ويقول:

«تكون النهاية».

فكان عليّ أن أقبل بشروطه وأنظّم مواعيدي، بحسب وقته. وفوّتُّ، بسبب هذا الأمر، كثيرًا من المحاضرات، وكدت أخسر الأجر الذي أكسبه منها.

وهو، في المقابل، لم يشرح يومًا سبب انشغاله. كان يعمل بالتأكيد؛ فعملي مختلف عن عمله، فأنا لم أكن مقيَّدة بفريق وزملاء، لذلك لم أكن مجبَرة على تبرير غيابي. كما أنني لست مسؤولة عن حسابات، وغير مضطرّة إلى المشاركة في جردة مخزون المكتبة. وفسّر لي يومًا:

«أعمل اليوم في المكتبة لأكسب خبرة. لكن طموحي هو الأعمال المالية. أريد العمل في مؤسسة كبيرة، مثل 'سامسونغ'، أو 'أل جي'، أو 'هيونداي'. لن أبقى طوال حياتي بين الكتب».

وهذا أكثر ما أحرجني، لأن قضاء حياتي بين الكتب كان حلمي الأكبر.

أهملت سالومي طوالَ أسابيع، فبدأت تبعث إليّ رسائل نصّية قصيرة

سخيفة، مثل: «لقد اشتقت إلى السيد شو هان سو وحمامِه»، أو «أنا في حاجة إلى سماع قصة جديدة». وأصبحت رسائلها لاحقًا أكثرَ يأسًا: «لا تنسَي أن صديقتك كيم سي-ري على وشك الموت!» و«احكي لي قصة تُغفيني إلى الأبد!»

كنت في حاجة إلى مزيد من المال لأن نزهاتي مع فريديريك كانت تكلّفني كثيرًا، وخصوصًا أنني تأخَّرت عن دفع إيجار ثلاثة أشهر، ومالكة الشقّة تطاردني في كل مكان. فعلى الرغم من المبادئ العظيمة التي كنت أتحلّى بها، فإنني كنت أصرف، على المطاعم والنزهات، النقودَ الموضوعة داخل المغلَّفات، وذلك المالَ الوفير الذي أحصل عليه من السيدة الحزينة. ونفدَ صبري من دون أن آسف على مصير صاحبة الـ٥٠ ٠٠٠ ون، أو على أي شيء آخر. كانت الحياة في تلك المدينة الكبيرة شبيهةً بالميتم الكبير الذي زرته ذات يوم مع طالبات دروس اللغة الإنكليزية؛ ذلك الميتم حيث ينتظر عشرات الأطفال عائلاتٍ يائسةً تشتريهم سرًّا، كما تُشترى البضائع في الأسواق، بعد أن تتأكد من أنها غير مضروبة، وأن الطفل غير مصاب بمتلازمة داون، وليس مولودًا لأبوين مدمنين.

لبّيتُ، أخيرًا، دعوة سالومي في يوم يغيب عني فيه فريديريك باك، فاستقللتُ الحافلة واتجهت إلى جنوب المدينة.

القصة الثالثة

التي أرويها لسالومي، تموز/يوليو ٢٠١٦

اصطفت المهود بانتظام، جنبًا إلى جنب، في قاعة الحضانة الكبرى. كانت الساعة تشير إلى موعد النوم، والمكان كان غارقًا في سكون تامّ. بانت الممرضة هانا، من خلف الزجاج المتندّي بالأنفاس البشرية، وهي تغطّ في النوم فوق الكرسيَ. لا يزال ظلام الليل يعمّ المكان في الخارج، وقد لوّن بزرقته الحالكة الشبابيكَ المسيَّجة، وتشعّ القاعة في الداخل بأنوار اثني عشر شريط نيون، بعضها يومض من أعلى السقف ويغمر المكان بنوره الأبيض، معزّزًا الشعور بالبرودة.

وصلت ناومي إلى تلك الحضانة ذات صباح من شهر تموز/ يوليو ٢٠٠٨. كانت هانا مَن وجدها مرميةً عند عتبة مستشفى التوليد بون باستور *(Bon Pasteur)* (وهو الاسم الأجنبي لتلك المؤسسة الخيرية). استقلّت هانا، كعادتها، إحدى حافلات المواصلات العامة، في تمام السادسة من صباح ذلك اليوم، وترجّلت في محطة مترو هونغداي لتصعد الهضبة مشيًّا على قدميها. بدتِ الشوارع في

تلك الساعة مهجورةً، باستثناء بعض الكراتين وقناني المشروب الفارغة التي يرميها الساهرون في الهواء الطلق، هنا وهناك. هانا معتادة ذلك المنظر، وكفَّت عن التذمر والشتم لدى رؤيته منذ وقت طويل. «اللعنة عليكم، طلاب آخر زمن. تعيشون بلا انضباط مثل الكلاب». وقع نظرها، لمّا وصلت إلى مدخل بون باستور، على رزمة خِرَق كانت مرمية على الأرض. اقتربت منها لتدفعها بقدمها إلى منفذ المياه العام، فتفاجأت بتحرّكها، ثم علا صراخ ناعم أشبه بمواء قطة صغيرة، فانحنت بحذر فوقها لتفرّق بين الأقمشة بأطراف أصابعها خوفًا من أن تتفاجأ بحيوان مفترس، وإذ بها تجد رضيعًا بشرته وردية، وعيناه مغمضتان، ورأسه متوَّج بخصل حالكة. كانت ناومي.

لم تكن تدعى ناومي حينها طبعًا، فهانا هي من أطلقت عليها ذلك الاسم. وعلى الرغم من أنها عزباء ولم تُنجب من قبل، فإنه سبق لها أن فكّرت في الأمر: لو أنجبت يومًا فتاةً، وهذا أكثر ما كانت تتمنّاه، فستسميها حتمًا ناومي.

مضى شهر على وصول ناومي إلى الحضانة، أصبحت خلاله تفتح عينيها وتنام في مهد، مثل الأطفال الستة والعشرين الباقين. لكنها كانت الأجمل بينهم، في رأي الممرّضات، وبموافقة هانا. إلا أن أولئك الأطفال لم يكونوا في عمر ناومي، فثمة من كان يكبرها بستة أشهر، وثمة من وصل بعدها بقليل. وهناك الذكور وهناك الإناث. وهناك المعوّقون الذين اتَّضحت إعاقتهم على الرغم من صِغَر سنّهم. والأمر الوحيد الذي كان يجمع بينهم هو هجران

أمهاتهم لهم لأسباب متعدّدة، الغالب عليها صِغَرُ سنّ الأم وعدم أهليتها لتربية طفل، وعدم قدرتها على تحمّل الإهانة لإنجابها طفلًا خارج إطار الزواج. وكانت الحضانة، في المقابل، تستقبل كلَّ يوم ثنائيًّا عاقرًا يبحث عن طفل للتبني. لكن الثنائي لم يكن يتمتع بحق اختيار الطفل، أو حتى الاقتراب منه، وكان عليه الاكتفاء بالنظر إليه من خلف الزجاج، وتأمّل المهود، والاستماع إلى أصوات البكاء عن بعد، آملًا أن يشعر في إثر ذلك بنداء أحد الأطفال ليتبناه على الفور، ويبدأ بتصوّر كيف ستكون هيئته في المستقبل. وكانت هانا قد وضعت ناومي في وسط القاعة، واختارت لها مكانًا أبعد ما يكون عن الزجاج كي لا يراها أحد، أو حتى لا يسمع صوتها، أو ينجذب إلى بشرتها الوردية وخُصلها الحالكة، فيرغب في تبنّيها.

وناومي؟ كانت ناومي، حينها، لا تزال صغيرة لا تتحرّك، ورأسها الثقيل يلتصق بالشرشف البارد. لكن بؤبؤي عينيها كانا يتّسعان لكل الإنارة البيضاء التي تسبح فوق رأسها؛ تلك الإنارة الشديدة البياض، والتي تُخفي أيَّ شيء وراء تموّجاتها اللولبية شبه المرئية، مثل الغشاء الشفّاف أو الشاش الرقيق؛ تلك التي تنتشر داخل الصالة بملايين الجزيئات البراقة في الهواء. كانت ناومي وحدها قادرةً على رؤيتها. وأصبحت لاحقًا تشعر بوجود سائر الأطفال من حولها. كانوا كُثرًا، لكن عددهم غير مهمّ. المهم هو الصراخ والبكاء والشهيق والزفير ورائحة التعرُّق والتبوُّل، ورائحة الرضَّع اللاذعة؛ تلك الرائحة التي تخطّ مثل لوحة شطرنج في السقف، وعلى الجدران، وفي الأرض

تحتها أيضًا. كما أنها كانت تشبه شيئًا آخر، موجة أو صراخًا أو لونًا. وحتى لو أنها، في الحقيقة، لا تمتّ إلى كل هذا بصِلة، فقد كانت تختفي، ثم تظهر، وتعبر فضاء ناومي وتنزلق فوق جسمها ووجهها المنغلق وبطنها وبواطن يديها وقدميها. لعلّها تشبه الموجة. لذلك كانت ناومي تشعر بكل تلكِ الأجسام من حولها، حتى بعد أن تكفَّ عن الصراخ والبكاء، وتغطّ في سبات عميق نتيجة التعب، فينسى الكل وجودهم باستثنائها هي. أما تلك الذبذبات داخل جسمها، فهي التي قالت لها إنها فتاة، وإنها ابنة امرأة أنجبتها ذات لحظة، وجاءت بها إلى هذا المكان، ولن تتركها أبدًا بعد ذلك مهما طالت السنون، حتى نهاية العمر.

«ناومي، يا ناومي، اسمعيني يا صغيرتي، ابتسمي لي، أنا هنا من أجلك، يا حبيبتي».

ها هي هانا تنحني فوق سريرها، وتحدّق في عينيها السوداوين الكبيرتين، وفي بياضهما المائل إلى الزرقة، مثل زرقة الليل الذي يسبق الولادة.

«من أين تأتين، يا ناومي؟ هل تذكرين ذلك؟ هل ستتمكّنين من إخباري يومًا؟ مَن أنجبك إلى هذا العالم؟ ومَن رماك على عتبة بون باستور، وغلّفك بأقمشة بالية نظيفة، لم تكن لك ثوبًا ولا حتى فراشًا؟ مَن وضعك هناك صباح ذلك اليوم البارد في مطلع فصل الربيع، لتتغطّى شفتاك بلقاح أزهار الكرز، وتفوح منك رائحة العشب في الحديقة العامة؟ هل رأيت، يومها، العصافيرَ المهاجرة

من سيبيريا تمرّ فوق بحر اليابان. كانت تتقدَّم ببطء في سرب جميل تلحق بالأكبر سنًّا. لا بدّ من أنك سمعت صراخها الأجوف يُنشر صداه في أرجاء المدينة حتى أقصى شوارع سينشون وهونغجيك، ليبلغ مخبأك في أسفل ذلك المبنى الرماديّ. هل تذكرين ذلك، يا صغيرتي؟ هل تذكرين ما حدث معك في بداية عمرك. لا يمكنك نسيان ذلك، فأنت لم تُولَدي في مستشفى مثل سائر الأطفال، بل وُلدت في إحدى زوايا المدينة، أو في حديقة ما، أو ربما على سطح أحد المنازل وسط الكراتين والملاءات التي تجفّ تحت أشعة الشمس. لا بدَّ من أنك صرخت مع أمك وهي تضعك في هذا العالم، ثم جاؤوا بك إلى هنا، إلى عتبة هذه الحضانة لأجدك أنا، هانا، وأجعلك ابنتي أنا».

لكن ناومي لا تسمع شيئًا، ولا تزال في عالمها؛ ذلك العالم الذي يسبق الولادة، والذي يجرّه البشر إلى هذه الدنيا بحبل السُّرّة وبأطرافهم وأعضائهم التناسلية. عالم واسع ومجهول إلى درجة يعجز فيها الذهن عن تصوره. وما هو الذهن سوى قليل من اللحم لا يزل الزمان والمكان معلَّقين به لبعض الوقت، وبعض الأيام، وبعض الأسابيع، كما لو أننا قادرون، عن طريق فوهة صغيرة على التمييز بين البداية والنهاية.

هل تسمعين صوتي، كان أول صوت سمعته بعد ولادتك، لأن من جاء بك إلى هنا وتخلى عنك عند عتبة الحضانة، فعل ذلك وسط صمت رهيب لخوفه من أن تتذكَّريه يومًا وتتعرفي إلى صوته، فتصرخي في وجهه: أنت أيها البائس، ماذا فعلت؟ لماذا تخليت

عني؟ صوتي هو الصوت الذي سمعته عندما وجدتك وحملتك بين ذراعَيّ، أنا هانا؛ العجوز هانا التي لم تنجب من قبل؛ العاقر هانا التي أصابها الجفاف في بطنها وثدييها، فأصبحت مثل عجوز تجعدت بشرتها وترهل جلدها. صوتي الذي غنى لك وأنا أهزك بين ذراعَيّ. لقد غنيت لك أغنية بلا كلمات؛ الأغنية التي غنتها لي أمي عند ولادتي، ما زلت أذكرها. كنت طلبت من أمي أن تغنيها لي عندما رحلنا عن الجنوب، وانتقلنا للعيش في هذه المدينة الكبيرة. كنت أشعر حينها بالخوف من الضياع.

ثم تابعت الغناء، لو لولو لولو لو، لو لولو لو لو، لو، لولولو لولولو، لو... غنّت هكذا بلطف وهي تُدوّر شفتيها ليخرج صدى الكلمات على وقع هديل الحمام من أعلى الأسطح. تذكّري دائمًا يا حمامتي، واعلمي بأن هناك من سبقك إلى الشارع البارد والهواء الربيعي

ورائحة العشب التي تفوح في الحديقة العامة وباقة الأزهار المتفتحة في أشجار الكرز واحتكاك المطر.

احتضنت، بعد ذلك، القاعة الكبيرة الطفلة ناومي. فجُرّ مهد جديد فوق بلاطها، حواجزه الأربعة من القماش، وفرشته القاسية ملفوفة بشرشف أملس مثل سطح الطبل. وما إن وضعت ناومي في السرير حتى علا صراخها ونقلته إلى سائر الأطفال. هكذا سمعت ناومي فجأة أصواتًا بشرية بدت لها مخيفة، وإن أشارت في الوقت نفسه إلى بدء مغامرة جديدة. كل أولئك الأطفال الذين تخلت عنهم أمهاتهم، وهن فتيات يئسن من أزواج غائبين أو من أزواج جبناء؛ من عائلات مصابة بالعمى من كثرة أنانيّتها ولؤمها، ومن مؤسسات وقوانين وعادات صارمة. أطفال أشبه بصغار حيوانات شرهة وشرسة تتعلق بالحياة بكامل أعضائها وقوتها.

لم تُعجَب سالومي كثيرًا بتلك القصة. وعلى الرغم من ذلك، فإنها بدت متشوقة إلى سماع تتمتها. توقعت حبكة ما، أو نهاية تُرضي شهيتها. لعلها ذُكرتها بقصتها، فهي أيضًا عرفت الهجر. فبعد أن ورّثها والداها ثروة طائلة، تناولا السمّ ولحقا بأسلافهما.

«لمَ يولد أولئك الأطفال وسط الغموض؟ ولمَ تتخلى عنهم أمهاتهم بعد أن يلدنهم؟ وما الذي سيحلّ بهم في المستقبل؟»

- «تتشوقين إلى معرفة الإجابة، أليس كذلك؟»

أدركت فجأة سلطتي عليها مثلما أدركت سلطة فريديريك عليّ. هو شعور

جميل، لكنه لاذع في الوقت نفسه. يعطيك انطباعًا بأنك تقع في فخ الإغراء والرذيلة. وتابعت، للتأكد من ذلك، قائلة:

«إذا كنت لا تحبين قصصي، فيمكننا التوقف هنا حالًا».

فحنت سالومي رأسها. كنت الوحيدة التي تربطها بالعالم. وذلك الرابط معنوي بحت، لا يشبه الاستعراض التقليدي الذي تقوم به ممرّضاتها وهن يغيّرن لها الحفاضات، ويساعدنها على الاستحمام، ويقدمن إليها الطعام لتنقده مثل العصفور، ويساعدنها على النوم. فتمتمت قائلة:

«لا، أرجوك، ابقي بعد، اروي لي ما يحلو لك».

فأكملت القصة.

كانت ناومي تبقى معظم الوقت صامتة في مهدها البارد. وعندما يبدأ طفل بالبكاء، وطفل آخر وثالثٌ وعاشر، إلى أن تنفجر القاعة بالبكاء، فتتتالى الصرخات وتشتد الملامح مثلما تشتد قبضات اليد، وتتفتح الأحلاق لتطلق النداءات الحادة متسببة باحمرار البشرة؛ تبدأ الممرضات بالركض في الممرات، ويعجزن بطبيعة الحال عن السيطرة على الوضع، فيمضي الوقت وهن يتنقلن من طفل إلى آخر، يتحسسن حفاضاتهم ويدقّقن في فرشاتهم، للتأكد من غياب أي دبوس، وينتهين بسد آذانهن قبل أن يصبن بالجنون.

وكانت الممرضات يجهلن أن ناومي هي من تطلق أول نداء إلى الصراخ. فما إن يعم السكون في القاعة، ولا أقصد بذلك ليلًا، لأنَّ لا فرق في الحضانة بين الليل والنهار، إنما عندما تخفت الإنارة الليلية

داخل القاعة، حتى ناومي تشعر ببعض القلق، مثل قلق الأطفال المرميين كما تُرمى الهرر الصغيرة.

تطلق عندئذ صراخها، وهو صراخ واحد لكنه حاد وشرير، يشبه نداء الاستغاثة ويعكس بعض الغضب. فتستيقظ الحضانة وتتوالى الصرخات إلى أن تسرع الممرضات ومقدمات الرعاية والقابلات القانونيات إلى القاعة.

وحدها العجوز هانا كانت تعرف بها؛ هو حدسها، أو لأنها أول من سمع صراخها عند عتبة الحضانة في ذاك الصباح المبكر. وعلى الرغم من ذلك، فإنها لم تخنها يومًا لأنها كانت تفهمها؛ فهي ابنتها الوحيدة، ابنتها وحدها فقط. لم تتقبل هانا يومًا فكرة وصول سيدة غريبة بوجهها المطلي بالبودرة البيضاء لتحملها معها إلى منزلها الجميل في غانغنام، أو إلى شقتها الفاخرة على ضفة نهر هانغانغ. لذلك أثارت بلبلة بادعائها أنها طفلة غير طبيعية، وأنها صماء مصابة بالتثلّث الصبغي، وتعاني نوبات عصبية. وكانت ما إن يقترب زوج من الزجاج ويعثر على مهدها ويلاحظ بشرتها الوردية وخصلها الحالكة حتى تتدخل قائلة: «عرفتم أن هذه الطفلة مختلفة عن الباقين، لا؟ ألم يذكروا ذلك أمامكم في مكتب التبني؟» وإذا أبدى أحدهم بعض الإصرار «لكننا سنقدم إليها الكثير من الحب لأنها في حاجة إليه أكثر من الباقين» كانت تجيبهم على الفور: «لا أمل لها في النطق أو التبسم، ولا ندري بعدُ إذا كانت ستبصر، إذ يبدو أنها تعاني مشكلة في بصرها». بقيت هانا تبعد المرشحين عنها

إلى أن جاء اليوم الذي قررت فيه الإدارة أن تبعد ناومي عن الحضانة لما تتسبّب به من اضطرابات ومن إبطال في معاملات التبني. يبعدونها، لكن إلى أين؟ كانوا على وشك نقلها إلى مؤسسة رسمية تعنى بالأطفال المعوّقين، فوضعت هانا مخططها. بدأت بالإعلان عن اقتراب موعد انتهاء خدمتها وقرار عودتها إلى الجنوب للاعتناء بأمها. ونجحت قبل أيام من نهاية خدمتها في تولي حراسة الحضانة الليلية بين الواحدة فجرًا والسادسة صباحًا، وجمعت كل ما يمكن أن تحتاج إليه من أغراض في الأيام التالية. قررت ناومي في تلك الليلة أن تضرب ضربتها القاضية. بقيت هادئة لساعات طويلة، فتمكنت الممرضات من النوم على كراسيهن أمام شاشة التلفاز. وعند الساعة الخامسة والنصف بالتحديد، أطلقت الصراخ الأكثر حدة والأكثر فحشًا. فثار المكان وراح الجميع يركض في كل الاتجاهات بعيون مثقلة من النعاس، في محاولة لإيقاف الصخب الذي تتسبب به جوقة الأطفال. فاستغلت هانا الفوضى، ولفّت ناومي بغطاء وهربت بها خلسة. دفعت بوابة الحضانة الكبيرة ووجدت في الخارج سيارة أجرة سوداء تنتظرها. لكنها لم تشعر بالفرحة في الصميم إلا بعد رؤية مصابيحها مشتعلة. فتحت هانا باب السيارة وجلست في المقعد الخلفي وهي تشد الصغيرة إلى صدرها. «إلى أين؟» سألها السائق. اكتفت بالقول: «سر فورًا». فأقلعت السيارة، واسترخت هانا في مقعدها، ثم شقت الغطاء طية واحدة. كان نور النهار لا يزال خافتًا، لذلك لم تتأكد تمامًا مما رأته، فقد بدا لها أن ناومي تبتسم لأول مرة.

تتمة قصة

السيد شو والحمَام، آب/أغسطس ٢٠١٦

كان تدريب السيد شو للحمَام شبيهًا بالتدريب العسكري. كان كلَّ صباح، عند ساعات الفجر الأولى، يركب دراجة ثلاثية العجلات، حاملًا معه قفصين أو ثلاثةَ أقفاص، ويتجه إلى المكان الذي اختاره بعد طول تفكير. قصد أولًا ضفة النهر ليُدرّب الحمام على عبوره مباشرة من دون التوقف عند الجُزر الصغيرة أو فوق دعامات الجسر. يبدو النهر عند شروق الشمس مثلَ غيمة طويلة في جسم أفعى، ويسبح الضباب عندما ينبع من البحر صعودًا إلى مصب النهر؛ هناك من جهة إنشيون فوق الامتدادات العشبية الحمراء التي يغمرها البحر تدريجيًّا عند كل مدّ، تعلم حمام السيد شو التحليق عاليًا.

ربط السيد شو بقدم التنين الأسود رسالةً ملفوفة تتضمن مفردات قد لا يفهمها الآخرون:

بحر؛

جزيرة؛

هواء؛

جناح؛

عودة

وبقدم ماسة اليمنى، ربط رسائل أخرى تحمل معنى الحب:

لانهاية؛

على طول؛

عناق

وأضاف إليها اسم زوجته سيون هي هان.

ما زال السيد شو يفكر في زوجته باستمرار. كان لا يزال في الشرطة عندما ماتت هي في الجزيرة. لم يكن حينها يجني الكثير من المال، فاضطرت إلى العمل في حمّام عام، في غرف الساونا والتدليك وفي تقشير بشرات النساء القرويات.

بدأت مغامرات السيد شو مع الحمام بفضل زوجته. ما زال يذكر ما قالت له عندما سألها عن جدتها: «إذا لم تكن طيرًا، فلن تنجح في العودة إلى ديارك». الأمر بديهي، لأن أبراج المراقبة والأسلاك الشائكة لا تشكل حاجزًا إلا أمام الحيوانات الأرضية والكائنات البشرية. لكن الطيور والحشرات والأفاعي والضفادع لا تُستوقف

عند الحدود. فتمكّن السيد شو، بمال سيون هي هان، من تربية حمامه. وكم تمنى لو تزوره في حلمه لتؤكد له أنه سينجح ذات يوم في نقل رسالته إلى عائلته التي بقيت في الطرف الثاني من الحدود، كونها توفيت قبل أن يحقق الحمام أمنيته.

فكر السيد شو بعد أن نجحت الاختبارات فوق النهر الكبير، في أنه حان الوقت ليدرب الحمام في الجبل؛ هناك عند الجانب الآخر من الحدود، حيث تتشح الجبال بالبياض وتشمخ القمم عاليًا وتشكل الشقوق الجليدية عوائق وعرة في وجه كل من يجهل التحليق. وفي مراحل التدريب الأولى، قاد حمامَه إلى قمة جبل بوخانسان بدراجته، لكنها سرعان ما لهثت، فهي قديمة من أيام عمله في نقل الخُضَر والفاكهة من السوق إلى وسط المدينة. لذلك فضّل الاستعانة بسيارة أجرة، وناقش سعر رحلة الذهاب في الصباح الباكر والعودة في آخر النهار، مع سائق تاكسي يدعى السيد لي، عمل هو أيضًا سابقًا في الشرطة، وهو ما سهّل اتفاقهما على سعر يُرضي الطرفين في أجواء من الثقة المتبادلة. كما تمنى السيد لي على السيد شو أن يضع الحمام في صندوق حديدي لتفادي انتشار الروائح الكريهة والريش المتطاير داخل السيارة، من دون الحاجة إلى إغلاق الصندوق بالكامل. فقبل السيد شو على الفور: «هذه الطيور لا تبرد كثيرًا، كما أن بعض الهواء لا يشكو من شيء». وجهز، في تلك المرة، رسائلَ أكثر وضوحًا تحسبًا لضياع طير من طيوره فوق الجبل وتولي أحد السكان أمره، فجاءت الرسائل على النحو الآتي:

«مرحبًا! أنا التنين الأسود، هذه الرسالة ستساعدكم على إعادتي إلى معلمي السيد شو».

وتبع ذلك عنوانه. أراد السيد شو أن يضيف رقم هاتف ابنته، لكنه خشي ألا توافق على مشاركة رقمها الشخصي مع الغرباء. وخشي أيضًا سخريتها.

وأقلت سيارة أجرة السيد شو وحمامه، ذات صباح من شهر نيسان/إبريل، في ساعة مبكرة، إلى رأس الجبل. كان الهواء لا يزال باردًا على الرغم من صفاء لون السماء في الأعلى فوق الضباب.

نادى السيد شو على ماسة والتنين الأسود، قائلًا: «تعالا يا حبيبتَيَّ، ستتذوقان اليوم طعم التحليق في الهواء النقي، لا بل الهواء الأكثر نقاءً في هذا البلد، هنا بعيدًا عن أجواء المدينة». فتح السيد شو، في مرحلة أولى، بابَ القفص نصف فتحة ليستعد الطائران لمهمتهما، وراح يهدل في أسفل حنجرته «رررررووووو رررووو» ليطمئنهما. ثم أخرج ماسة وهو يشد عليها بين كفيه، وينفخ بكل لطف فوق منقارها، فبدأت ترفرف بجناحيها، عندما أحست بنقاء الهواء واشتمّت رائحة الصنوبر تحت أشعة الشمس والنباتات البريّة بين الصخور، ورائحة الثلج النقي؛ تلك الرائحة المطمئنة التي تشعر بها العصافير من دون سواها. بعد ذلك مشى السيد شو إلى السور المطلّ من أعلى الجبل، ورمى بماسة إلى السماء، وراح يراقبها وهي تطير عاليًا أمام الشمس الشارقة وتلتفّ فوق الأشجار، إلى أن ملأت

رفرفتها السماء واخترقت السكون في الفضاء. ثم أسرع ليحرر التنين الأسود، فارتفع في رفرفة سريعة عمودية ليلحق بزوجته.

التقت الحمامتان في الفضاء وراحتا تلتفّان الواحدة حول الأخرى. وعندما رآهما السيد شو تطيران بسرعة فائقة جنبًا إلى جنب، خاف من أن ترتطما بالصخور، ثم أغمض عينيه ليشعر بدوره بشعورهما، مثل زوبعة نور وهواء تجرف في طريقها الجبل من أسفله وتنسج خيوطًا بيضاء ورمادية من السحاب.

أغمضت سالومي عينيها هي أيضًا ومدَّت يدها لأضغط عليها بكفيّ كما لو أنها ستجعلها تحس بذلك الهواء النقي الآتي من أعلى الجبل، وبالريح وهي تصفر بين أغصان الصنوبر، وبرفرفة أجنحة الحمام، فانتفضت بالكامل. كان مرضها قد تضاعف عشر مرات وأصاب خلاياها العصبية، فباتت أي نسمة تغرز في أعماقها وتؤلمها. وعلمت من صديقتي يوري، وهي طالبة في كلية الطب، وكانت هي من حدثني أول مرة عن تلك المتلازمة المؤلمة والمعقدة التي تصيب الجسم، بأنه في مرحلة متقدمة من المرض يتحول أبسط إحساس عند المريض إلى معاناة لا تطاق، وهذا الأمر يستوجب تناول المهدئات. قالت لي ذلك بلهجة الأطباء الباردة. أما أنا فقد تراءى لي داخل تلك الغرفة المظلمة بستائرها المغلقة باستمرار والغارقة في صمت رهيب، أن ما تشعر به سالومي شبيه بموجة كهربائية تخترق سطح الجلد وتجتاح جسمها بالكامل وصولًا إلى جذور الشعر. «اعذريني يا سالومي، لم أقصد إيلامك، يمكنني الرحيل إذا أردت». لكنها لم تُجب، بل انكمشت يدها فوق يدي وتشبثت أصابعها فغرزت أظافرها المعقوفة في بشرتي، وبان اخضرار فوق شفتيها الناعمتين.

ودامت تلك الموجة الكهربائية وقتًا طويلًا ثم اضمحلت تدريجيًّا وانسحبت إلى أعماق جسمها فشعرت بالتعب وبنوع من التخدير كذلك الذي يتلو عادة الألم.

حان أخيرًا الوقت لأروي قصتي. هي قصة حقيقية، وحدثت لي بالفعل.

قررت اليوم أن أرويها لسالومي، لأنني في تلك المرحلة من الوقت كنت متعبة من كل ما هو مصقول. لا شك في أن مرضها خطير، لذلك تعجز عن الحركة في مقعدها، وترتدي الحفاضات فوق بشرة رقيقة مهتاجة ظهرت عليها علامات احمرار وعلامات زرقاء. ثم فاحت رائحتها، إلى درجة صعب عليّ تحملها. لم أكن أعرف، من قبل، أن للمرضى رائحة لاذعة تشبه رائحة العجائز. كنت أعلم بذلك الأمر من جدتي، إذ قمت مرارًا في صغري بتدليكها. لكن رائحة العجائز ألطف وتذكّر بعطر الأزهار الذابلة، في حين أن رائحة سالومي كريهة ولاذعة، وهي مزيج من رائحة الدابة ورائحة التعرق. وقد سبق للممرضة أن وضعت لها مرارًا الكولونيا؛ ليترات من الكولونيا، وعلى الرغم من ذلك فإن رائحة جسمها بقيت تطوف على السطح، وتنتشر في كامل الغرفة. كنت أرغب أحيانًا في أن أقول لها: «رائحتك كريهة يا سالومي». إلا أنني لم أقلها أبدًا، وليس من باب الاحترام أو من باب المصلحة، ففي النهاية أنا لست خادمتها، بل أنا أروي القصص لها فقط. لكنني لم أقلها من باب الكبرياء، لأنه، برأيي، لا يحق لي التذمر. وإذا كنت عاجزة عن تغيير الوضع، فإما أن أقبل به وأعود في الغد، وإما أن أرفضه كليًّا وأتوقف عن المجيء. لذلك رأيت أن الثرثرة لن تنفعني. بدأت لاحقًا أحسّ بتلك الرائحة في أعماقي. كنت ما إن أعود إلى غرفتي في تلك الشقة الصغيرة تحت الأرض وأفتح نافذة التهوئة بمستوى الشارع متجاهلةً وجود أكياس الزبالة

التي تجذب الفئران والصراصير، وأتمدد فوق فراشي المطروح أرضًا، حتى أعاود الإحساس بها وهي تعمّ الغرفة وتفيض في خياشيمي، إلى درجة شككت مرة في أنها تنبع مني. فوضعت رأسي تحت الشرشف وغفوت وأنا أشد على قبضتيّ.

ظهر يومها ذلك الذي يتوق إلى أن يصبح قاتلًا.

قصة القاتل المتدرب

نهاية آب/أغسطس ٢٠١٦

كنت في ذلك الوقت لا أزال أقيم فوق إيوها في حيّ شوارعه ضيقة، تقود كلها إلى أعلى الهضبة، ومبانيه قبيحة، يتألف معظمها من طابقين. وكنت أدعوه حيّ إل سورديدو (El Sordido)؛ فعندما يسألونني في الجامعة عن حيّي، أجيب على الفور «في إل سورديدو». كان في إمكاني أن أطلق هذا الاسم على المبنى ١٠٠٢ حتى لو أنه لا يحمل في الواقع اسمًا، وإنما يحمل رقمًا، هو: 203 Dong 1002 Ho. وهو مبنيّ بحجر الطابوق، نوافذه وأبوابه حديدية، وسلّمه مظلم ينتصب عموديًّا. شغل طابقه الأول مطعم يقدم حساء سيوليونغتانغ، والثاني صالون تدليك. أما أنا فاستأجرت الطابق السفلي، وهو كناية عن غرفة بنافذة واحدة، أو بالأحرى طاقة تهوئة بمستوى الشارع، وكانت أكياس النفايات تسدها باستمرار. وما إن انتقلت إلى تلك الغرفة حتى دخلت في معركة يائسة (وأقصد بيائسة نفسي) مع فأر كبير كان مستقرًا فيها من قبل ويتنقل عبر فوهات التهوئة بعد أن اخترق الحاجز الحديدي. استبدلت الحاجز بمكعب خشبي، لكنه صار يعود

كل ليلة ليقضمه، فاضطررت إلى وضع قطعة جص لكنها لم تقاوم أسنانه. قصدت في النهاية تاجر الخردوات واشتريت لوح زنك وثبّته بالمسامير، فأمضيت الليالي التالية كأنني في جحيم، لأن حضرة الفأر الكبير (وكنت أدعوه بالغليظ Fat Boy، أو ربما الغليظة Fat Girl، لأنني لم أعرف إذا كان أنثى أو ذكرًا) حاول أن يشق ممرًّا لنفسه عبر لوح الزنك، فصدر عن احتكاك قواطعه بالمعدن لحنًا مزعجًا أبقاني مستيقظة طوال ليالٍ. فأشفق صاحب المتجر عليّ:

«ثمة حل وحيد للتخلص نهائيًّا من الفئران».

فكرت في أنه سيحدثني عن السم.

«لا، لم أقصد السمّ، لأنه يعرفه ولن يقترب منه، كما أنه خطير على الصغار».

وأعطاني حطامًا لقناني سوجو كانت مغلَّفة بالورق.

«خذي هذه وقشّريها، ثم اخلطيها بكريات الأرزّ وقدميها إليه. ستنفجر معدته ما إن يتناولها».

يا لتلك الفظاعة، لكنه خياري الوحيد: فإما أن أدعه يتغلب عليّ وإما أتغلب أنا عليه. لم أعد أسمع بعد ذلك بشيء، فتصورت أنه ذهب يموت في الخارج؛ هناك في ركن مظلم بعيدًا عن غرفتي.

كانت تلك البداية، لأنني تلقيت لاحقًا زيارة أكثر إثارة. كنت ذات ليلة نائمة في فراشي عندما استيقظت على ضجة غريبة. اعتقدت أولًا أنني في حلم مزعج. وعندما التفتُّ إلى طاقة التهوئة

كاد قلبي يتوقف. رأيت خلف الزجاج رجلًا في وضعية القرفصاء. كان ينظر إليّ بإمعان. لم يخطر لي أن تلك النافذة الصغيرة المنخفضة بمستوى الطريق تسمح برؤية ما في الداخل، لذلك لم أفكر في وضع ستارة. كنا في منتصف الصيف والحرارة قد بلغت ذروتها، لذلك كان الزجاج مفتوحًا نصف فتحة، فسمعت نَفَسه بوضوح، ورأيت الهالات الضبابية تخرج من فتحتي أنفه لتلتصق بالزجاج.

لا أذكر المدة التي بقيت فيها هكذا، أنظر مشلولة إلى ظله كما لو أنني في حلم مزعج لا أجرؤ فيه على التنفّس. انطلقت لاحقًا صرخة من حلقي فأحدثت دويًّا داخل الغرفة الصغيرة وأصابتني بالصم ودفعت به إلى الهرب. لم أستطع إبلاغ الشرطة لأنه بالفعل لم يحدث شيء، حتى إنني لم أكن قادرة على إعطاء أوصافه. فكل ما رأيته، تلك الليلة، كان ظلالًا ملتصقة بنافذتي، وصوتَ نَفَس وهيئة إنسان تنظر إليّ من خلف الزجاج، فعجزت عن إخبار حتى لمالك متجر الخردوات وأنا أحدّثه، لأعرف إذا كان لديه حل ضد المطاردين. سددت في الليلة التالية شقوق النافذة، وألصقت الزجاج بأوراق الصحف، وأسندت الكنبة الوحيدة التي تحويها الغرفة إلى مقبض الباب. وعلى الرغم من ذلك، فإنني لم أنجح في النوم. كنت أغفو من وقت لآخر وأستيقظ على طقطقة بلاط سريعة وملحّة، فأغلّ تحت لحافي لأعزل عني تلك الأصوات.

تخطت المطاردة لاحقًا حدودَ الليل، وبدأت أشعر بأنني مراقبة كلما خرجت من ذلك الكهف للذهاب إلى الجامعة أو المكتبة.

فحي إل سورديدو كان المسرح المثالي لمثل هذه السيناريوهات: شوارع ضيقة تهبط بك إلى محطة المترو؛ خبايا مظلمة؛ مرائب سيارات مسقوفة، وأفنية داخلية مهجورة. بتّ أشتبه في كل تلك الأماكن، وأرى ظلالًا مريبة أينما ذهبت، فأبدأ بالركض من دون النظر ورائي. ألتفت يمينًا ويسارًا، ثم أتوقف لأنظر إلى الانعكاسات في زجاج الصيدلية، فأرى خلفي ظلالًا معتمة لرجل طويل وضخم، كتفاه هابطتان، يرتدي بنطلونًا على طراز فتاحة القناني، وقميصًا قطنيًّا رمادي اللون، ويغطي رأسه بقبعة من الصوف على الرغم من حرارة الطقس المرتفعة. أصبحت لاحقًا قادرة على وصفه، حتى لو لم أره عن قرب. وبعد أن تخطيت مرحلة الذعر قررت أن أهاجمه بدوري بعد أن أحدد العناصر التي ستساعدني على رسم ملامحه. فقارنت طوله بارتفاع الإعلانات الملصقة على العواميد الكهربائية وعبر الانعكاسات الزجاجيةَ فوجدته يتخطاها بعشرات السنتيمترات، وهذا يعني أنه يقارب مترًا وثمانين سنتمترًا. أما الوزن، فكان تحديده أصعب، لذلك اخترت التسلل بين الكراتين الموضوعة على الرصيف، فعجز عن تتبعي، واضطر مرارًا إلى النزول إلى الأسفلت. سنه أيضًا لم تكن واضحة. وبما أنه كان قادرًا على الركض والتقدم بخطى كبيرة رجّحت أن يكون في مقتبل العمر، وهذا يعني أنه لا يزال قويًّا.

لمَ اختارني؟ لا شك في أنه وجدني قبل مدة، قبل أن أدرك وجوده بكثير؛ أي منذ أن انتقلت إلى هذا الحي اللعين وسكنت في ذلك الطابق السفلي هربًا من شقة عمتي. ولمَ يصرّ على ملاحقتي؟

قمت، بهدف تضليله، قمت بتبديل عاداتي. كنت لغاية الحين أتأخر في دخول الفراش؛ أُمضي ساعات طويلة في القراءة وفي مراجعة دروسي تحت النور المشتعل، وأستيقظ في الصباح في ساعة متأخرة تقارب الثانية عشرة ظهرًا. وبدأت، بعد ذلك، أطفئ النور باكرًا ليعتقد أنني نائمة وأستيقظ باكرًا وأخرج أحيانًا عند السادسة قبل أن أنظف أسناني وأسرح شعري وأتناول فطوري، بالملابس التي ارتديتها في اليوم السابق وأمضيت بها الليل. أردت أن أبدو مثل البؤساء حتى لا يرغب أحد في الاقتراب مني. اعتقدت أولًا أنه فهم قصدي وتخلّى عن مطاردتي. وكنت ذات يوم أهبط سلّم المترو عندما التفتُّ إلى الخلف ووجدته في الأعلى. كان يضع يديه في جَيْبَيْه وقبعة الصوف على رأسه المستدير الكبير. كان حينها يبتسم، فبعثت ابتسامته قشعريرة شعرت بها بين كتفي، كما لو أنه رمى سكينًا من مكانه فغرز في رقبتي.مكتبة سَر من قرأ

استمعت سالومي إلى قصتي من دون أن تحرّك ساكنًا. أعتقد أنها شعرت بالخوف، ربما لأنه لم يسبق لها أن فكرت في احتمال مطاردة مجهول لفتاة في الشارع من دون الاقتراب منها والتحدث إليها، لمجرد الرغبة في إثارة الخوف في نفسها. فلمتُ نفسي على تلك القصة وعلى تخييب أملها في ما سيلي. لعلّي رغبتُ في الانتقام منها ومن عالمها الحساس المحصّن ضد كل شيء إلا المرض؛ ذلك العالم الذي لا ينقصه المال، فتتوالى الممرضات في ساعات منتظمة إليها لخدمتها. وها أنا قد أصبحت جزءًا منه بعد أن التزمت براوية القصص لها؟ ولعلّي رغبت في معاقبتها على ما هي عليه، مجردة من أبسط أسلحة الدفاع عن النفس، فعلقت بها رائحة الموت؟ ثم قلت لها:

«أعتذر. ما كان عليّ أن أخبرك بهذه القصة. لم تحبّيها، أليس كذلك؟».

لكنها اعترضت، والتهبت فجأة وجنتاها ولمعت عيناها.

«لا، لا يا بِتنا، لا تقولي ذلك من فضلك».

وتابعت قائلة:

«هذه قصة خيالية أليس كذلك؟ أم أنها واقعية؟»

رغبت للحظة في أن أقول لها:

«وهل تعتقدين أنني قادرة على تصور كيف يكون القتلة؟»

لكنني تمالكت نفسي: «لا، طبعًا لا، يا سالومي. هذه قصة خيالية، مثل قصة الهرة كيتي التي تنقل الرسائل، وقصة السيد شو وحمامه». لكنني ترددت عندئذ: لِمَ تتأخر سالومي في ملء الفراغ بين سؤالها وإجابتي؟ ربما لأنها كانت في العمق مثلي، تريد أن تصدق أنها ليست واقعية وتأمل بسماع المزيد. ففي كل كذبة ثمة شيء من الحقيقة.

حل موسم الشتاء بشكل مفاجئ، وانهمر المطر على المدينة فائضًا كالأنهر في الشوارع. كنت أرى ذلك لأول مرة في حياتي، فالأرض في جيولا-دو لا تتأخر لحظة عن امتصاص الدفق المائي وتصريف تجمعات المطر. أما هنا في سينشون، فالشتاء يشبه نهاية العالم، فما إن تجتاح الغيوم الكبرى السماء وتغطي أعلى المباني حتى تغرق التقاطعات في مستنقعات، وتسيل الينابيع دفقًا داخل المصارف الصحية. لذلك، أصبحت كل صباح في ساعة ذهابي إلى الجامعة أو درس اللغات عرضة لتلك الكارثة. وبما أنني لا أحب المظلات غلّفت حقيبة ظهري بأكياس بلاستيكية وحجبت نفسي قدر المستطاع تحت غطاء بحّار مشمَّع (هذا كل ما بقي لي من سوق الأسماك)، وخلعت حذائي وحملته في يدي لأتنقل براحتي في الطرقات. كنت صغيرة عندما تعلمت المشي حافية القدمين في جيولا-دو. وها أنا اليوم أرى زميلاتي في الجامعة يتعثَّرن بكعوبهن العالية عندما تغرق في الوحل، وينزلقن بشباشبهن خافقات بأذرعهن مثلما تخفق الطيور أجنحتها فوق الجليد البحري. كنت أحب المشي حافية القدمين تحت المطر، فإحساسي بالمياه تجري بين أصابع قدمي يذكرني بطفولتي. شعرت في ذلك الموسم بالاسترخاء لأني أضعت نهائيًا ظل المتربص. أعتقد أنه لا يحب التبلل بالمطر، أو أنه كان أقل حذاقةً مني، لذلك فشل في اللحاق بي في الشوارع والأزقة الغارقة في السيول.

توقفت في ذلك الموسم عن رؤية السيد باك. حدث ذلك تلقائيًا من دون

تخطيط. كان يُفترض به أن يتصل بي ولم يفعل، ولاحقًا كان عليّ زيارته في المكتبة الكبيرة بعد ظهر يوم سبت، لكنني ذهبت إلى السينما بمفردي لأشاهد فيلم تشويق. كأن غياب ذلك المتربّص دفع بحبيبي إلى الاختفاء من حياتي هو أيضًا. أو أن الاثنين هما وجهان لعملة واحدة: من جهة، الرجل المستبد النرجسيّ الذي يتمتع ببعض الأنانية، ومن جهة أخرى المجهول الخطير والطماع.

لم أعاود رؤية سالومي لمدة طويلة، حتى إنني لم أتصل بها. ربما بسبب الأمطار والتحضير لدروس اللغة الفرنسية في الجامعة. وكنت قد قبلت ذلك العمل على الرغم من أن المال الذي دفعوه في المقابل كان مُهينًا للنفس. كانت الساقطة يون-جا مَن عرضته عليّ، فعقدنا اتفاقًا غير قانوني لأنني لم أكن أحمل شهادة تخولني التعليم. جعلتها تعتقد أنني عشت مطولًا في أفريقيا، وأنني أتحدث بالفرنسية مثل أهل البلد الأصليين. فناسبها الأمر بعد أن قررت هي وزوجها إنجاب طفل، وكانت في مرحلة الخضوع لسلسلة فحوص. وبما أنها في سن الأربعين لم يكن الأمر مضمونًا، لكنني لم أتعاطف معها، أولًا لأنها كانت، وستبقي، الساقطة المتعجرفة الواثقة بنفسها وبثروة والديها (فوالدها يملك مصنعًا كبيرًا لإنتاج كعك الأرزّ في سيول، وقد بدأ تصديره إلى الدول الأفريقية)، وثانيًا لأنها لم تدفع إليَّ إلا جزءًا من معاشها لأحلّ مكانها. كنت قادرة على تهديدها بالفضيحة، لكنني فكرت في أنني لن أجني شيئًا من ذلك. كانت ستحافظ هي على مكانتها بفضل ثروة والدها، وسأكسب أنا صيت الساقطة الخائنة التي تعضّ اليد التي امتدت لها. فأمضيت تلك الأيام في الجامعة أحضّر للدروس والمسابقات وأحمّل الأغاني والرسوم التوضيحية وأغاني داليدا وإيرفي ڤيلار وآلان سوشون الذي أحبه كثيرًا، وأعزز فهرس الساقطة يون-جا الذي اقتصر على أغنية يتساقط الثلج *(Tombe la Neige)* لآدامو.

وجدت نبرة صوت سالومي ضعيفة عندما اتصلت بها لأضع حدًّا لرسائلها:

«كيف حالك؟

- «لست بخير، أبدًا».

- «حقًا؟ أنا آسفة».

تلا ذلك صمت رهيب. كنت قادرة على سماع نَفَسها؛ صفيرًا حادًّا يشبه صوت الهواء وهو يخترق أوراق الصنوبر. وكنت قادرة على تصور الحرارة في غرفتها وأشعة الشمس التي تحط على ستائرها المغلقة، ورائحة التعرق التي تنبع من ملابسها، فشعرت بانقباض في قلبي، مثل كل ما نعرف حقيقته حق المعرفة ونشعر على الرغم من ذلك بحاجتنا إليه.

«أستطيع القدوم إليكِ الآن».

قلت ذلك من دون تفكير. وسرعان ما شعرت بالارتياح الذي تسبَّبت به تلك الكلمات، بتنهيدة أو أنها أصبحت تتنفس بسهولة أكبر. الأمر بسيط: لكل فعل ردة فعل. كان يمكن لذلك أن يبقى كذبة، أو يكون اختبارًا. هذا بالطبع فظيع، لكنني تعلمت مؤخرًا أن أتصرف بفظاعة، تمامًا مثل السيد باك الذي يضرب مواعيد ولا يحترمها، ويتصل من دون أن يترك رسالة، من هاتف عمومي أو رقم مجهول كرقم المكتبة مثلًا، أي رقم لا ينفع بأن تعاود الاتصال به.

- متى؟

- الآن إن شئتِ.

- هيا، اركبي سيارة أجرة، واحتفظي بالفاتورة لأسددها لكِ.

- لكنني لا أملك النقود لأدفع إليها.

- إذًا، سأطلب لك سيارة أجرة، أين أنتِ؟

- في الجامعة.

- سأتصل به على الفور.

وعادت وقالت:

«ستصل سيارة الأجرة إلى بوابة الجامعة بعد خمس عشرة دقيقة».

«حسنًا».

تفاجأت بكل التغيير الذي لحق بجسمها في بضعة أسابيع. كأن الوقت يأخذ مجراه الطبيعي بالنسبة إليَّ، ساعة بعد ساعة، ويومًا بعد يوم، وليلةً بعد ليلة، ويقفز قفزًا بالنسبة إليها. ما زال وجهها جميلًا (وما زلت أرى فيه أحد رسوم دانتي غابريال روسيتي، بجسر أنفها المرتفع، وانعقاف حاجبيها الذي يلقي ظلالًا على عينيها ويبرز اللمعة في نظراتها، وخُصَل شعرها الأمامية السوداء المستقيمة) لكنني وجدت ملامحها غريبة، شبه جامدة كما لو أنها تترقب أمرًا مخيفًا لا يمكنها تفاديه. كانت غارقة في مقعدها والغطاء ملقىً على ساقيها على الرغم من حرارة الطقس المرتفعة، فاستقبلتني بابتسامة مصطنعة.

قالت بالإنكليزية: *Long time no see* (لم أرَك منذ وقت طويل).

- فأجبتها: لا، ليس بوقت طويل.

فقامت بحركة متحمسة دلّت على تجاهلها لما قلت:

«لا يهمني سماع ذلك، وأفضّل أن أعرف النهاية».

بدا صوتها ضعيفًا كأن غشاوة تغلّف أوتارها الصوتية. كانت تتنفس بسرعة وفمها مفتوح ونَفَسها الدافئ يصفر بين أسنانها. فشبّهته بصوت المحرك الذي يعمل على البخار. ربما لم يبق إلا الجزء الداخلي من رئتيها سليمًا.

«وماذا عن القاتل المزعوم؟»

- «اختفى في الوقت الحاضر».

- «كيف اختفى؟ هؤلاء لا يختفون بسهولة».

ثم نظرت إليّ نظرة ساخرة. كنت سأقول شيئًا سخيفًا بشأن المطر الذي تسبّب باختفائه، لكنني امتنعت بسبب تلك النظرة. وفكرت في أنها أدركت أمرًا أو شكّت في شيء لم أفهمه.

ثم قالت: «لكنني لست في حاجة إلى تلك القصة».

وقفت لأجهّز الشاي كالعادة، فذهبت إلى البوفيه لإحضار الكاسات والصحون وأكياس الشاي، وغلاية سلام - تي التي أحضرها والدها من إنكلترا. ضغطت على زر التشغيل وانتظرت أمام النافذة. وتمكنت، عبر ستائرها الشفافة، من رؤية الشارع والأسفلت الذي يلمع تحت حبات المطر والنباتات المتلألئة. تلك النافذة المربعة في الحائط هي كل ما كانت سالومي قادرة على رؤيته. حتى السماء كانت بعيدة، تختبئ منها وراء سائر المباني.

«هيا أسرعي!»

هذه أول مرة تأمرني فيها سالومي، على الرغم من أن نبرتها كانت تكذب المضمون وتعكس نوعًا من الشكوى التي زفرتها من بين شفتيها الرقيقتين وهي ترتجف من الداخل. فجلست قبالتها على الكرسي المنخفض، كرسي الخياطة، وهو ما سمح لوجهينا بالتقابل كما لو أنني أجلس عند قدميها.

أعتقد أن الحكواتي يجلس هكذا، فأعجبني الأمر. تذكرت مرة أخرى شقيقة والدي، أو بالأحرى أخته غير الشقيقة التي تكبره سنًّا. كنا ندعوها جومو، وهو اسمها الحقيقي على ما أعتقد. فعندما كانت جومو تروي لنا القصص، كنت أجلس عند قدميها وأتركها تداعب شعري بأصابعها الناعمة.

نهاية قصة السيد شو،
نهاية آب/أغسطس ٢٠١٦

الحق يُقال (قلتُها بجدية على ما أعتقد) أن لكل شيء نهاية، حتى القصص الأكثر غرابة. والسيد شو كان يعرف ذلك على الرغم من تأجيله المتكرر للحظة إطلاق طيريه، التنين الأسود وماسة، إلى الجهة الثانية من الحدود.

عُزي ذلك إلى أنه كان في أعماقه يخشى الاختبارَ الأخير. مرَّ وقت طويل على انتظاره تلك اللحظة؛ لحظة العودة إلى البلد الأم، وهو ينتظرها منذ أن كان طفلًا في جزيرة غانغهوا ـ دو مع أمه، عندما كانت تغني له في المساء أغنية أريرانغ الشهيرة، وعيناها تحدقان في الضباب الذي يغطي ضفة نهر هان الكبير الأخرى. ما زال المشهد مطبوعًا في ذاكرته، يتذكَّره كل مساء، ساعةَ يتوارى النور، كأنه موعد الصلاة.

«سنعبر ذات يوم النهرَ ونعبر الجبال ونعود إلى ديارنا». هذا ما كانت أمه تغنيه له وهي تهز مهده فيغفو ويحلم بأنه يطير إلى

هناك. لعله الوحيد الذي يتذكر ذلك. وعندما أخبر سيون هي هان، المرأة التي كان سيتزوجها وهي كانت تفضّل الاسم الإنكليزي الذي اختارته لنفسها، نانسي، سخرت منه. كانت في البدء تسخر بلطف: «كل الصغار يحلمون بمرافقة أمهاتهم إلى السماء!» وتحولت إلى سخرية لاذعة مع مرور السنين: «لمَ لا تذهب وتتأكد بنفسك مما إذا كانت الناحية الأخرى فعلًا جميلة. يُقال إنه يجب الإسراع في دفن الموتى حتى لا تُلتهم الجثث من كثرة المجاعة هناك!» وفهم عندئذ أنها لن تزوره مرة أخرى في الحلم، لذلك أوقف الحديث عنها.

شعر السيد شو باقتراب الساعة، فمنذ وفاة زوجته وهو يحضر لرحلة العودة، إذ لم يعد هناك من يعترض على نزواته، حتى ابنته كبرت وتزوجت بموظف في مكتب المهجرين (كانت أكثريتهم من الجنسية الصينية) ولم يعد لديها الوقت أو الرغبة في انتقاد والدها. بات قادرًا على فعل ما يحلو له لأنه آخر همّ لديها.

شعر السيد شو، من جهة أخرى، بضرورة اتخاذ القرار مادام لديه الوقت. فهو لا يزال قويًّا على الرغم من أنه تخطى سن التقاعد، وعمله كحارس لمبنى غود لاك! تتخلله أوقات فراغ طويلة، إلا أن السنين المتبقية له تقلّ تدريجيًّا، فذات يوم ستنقصه القوة للقيام برحلة مماثلة.

كان الحديث عن المشكلات الحدودية في نهاية الستينات لا يزال متداولًا على الرغم من مرور وقت على نهاية الحرب، فوقع عراك بين قوات الجنوب وقوات الشمال في المنطقة المنزوعة

السلاح في غوسيونغ وأوجي. وحدث إطلاق رصاص حقيقي وسُمع دويّ مدافع هاون من دون أن يتسبب ذلك بقتلى أو جرحى. كل هذا كان في إمكانه أن يتكرر في أي لحظة.

لم يكن في وسع السيد شو أن يترك الأمر للصدفة، لذلك قرر إخضاع طيوره لتدريب خاص، ففكر أولًا في المفرقعات؛ تلك التي نحتفل بها في رأس السنة. ثم بدت له الفكرة سخيفة، لأن المسألة لم تكن إخافة عصافير الدوري، وإنما تحضير الحمام لأكبر رحلة وأكثرها خطورة.

قرر عندئذ ركوب الحافلة والذهاب في اتجاه الجنوب، إلى الحي القريب من حديقة الحيوانات، ومن هناك صعودًا في الطريق المتعرجة إلى داخل غابات الصنوبر. فوسط الفرجة في تلك الغابة يوجد مركز للتدريب على الرماية. فضل السيد شو، بعد مراقبة المكان، اتخاذَ الركن الشرقي موقعًا له؛ هناك عند الربوة في مكان لا يسمح لأحد بمفاجأته.

كان الوقت لا يزال مبكرًا، والمركز قد فتح أبوابه للتو. أفلت السيد شو حمامه قرابة الظهر: أولًا بينسون، وبعد ذلك الثعلبة، ثم ريّسة، وبعدها المسافرة ـ ولاحقًا ذبابة، وأخيرًا زوجها الزيز. وكانت أصوات المسدسات والبنادق تدوي في السماء الزرقاء، ورائحة البارود تنتشر في الفضاء. ثم انتظر السيد شو أن يشتعل الرصاص ليخرج التنين الأسود من قفصه، وراح يداعبه في معدته، فهو بطله الرئيسي، وهو الذي سيؤدي تلك المهمة بنجاح، ثم أطلقه في الفضاء

في اتجاه ركن الرماية. وسرعان ما أطلق ماسة بعده، فراحت ترسم الدوائر الكبيرة فوق أشجار الصنوبر.

انتظر السيد شو عودة طيوره حتى المساء. دويّ البوارید في غابات الصنوبر كان يغطّي على كل ما تبقى من أصوات، ويخنق محركات السيارات على الطرقات السريعة القريبة وصرير الزيزان بين أغصان الصنوبر. راح يفكر في الأصوات التي سمعتها أمه وهي تهرب من القرية تلف ولدها بشال على ظهرها تحت رشقات الرشاشات والقذائف التي تنهال، وتترنح فوق حقول الأرزّ في بوهانغدونغ وماسان. حدث ذلك في نهاية صيف عام ١٩٥٠ عندما كان السيد شو لايزال رضيعًا، وعلى الرغم من ذلك فإنه تمكن من التعرّف إلى صفير كل رصاصة ودويّ كل قنبلة تنفجر في الأرض.

حلَّ الشفق وبدأ الضباب يغطي السماء، فلمح السيد شو طيوره تبحث عنه وهي تدور حول نفسها اثنين اثنين، لا يفرق بينهما إلا رفرفة أجنحة. حينها كان دوي البوارید قد خمد، والزيزان عاودت إحياء حفلتها الموسيقية في نغمات تعلو وتنخفض بالتناسق مع هدير السيارات.

أعطى السيد شو طيوره إشارة الاقتراب منه بالتصفيق، أولًا الإناث ولاحقًا الذكور، فحطت متتالية على الأرض الجافة وسط أشجار الصنوبر. وعلى الرغم من أنها طارت طوال اليوم، فإنها لم تبدُ له متعبة. فحملها السيد شو بين كفيه، وشعر بقلب كلّ منها يدق بسرعة على وقع الإثارة الناتجة من التحليق الحر فوق الهضاب طوال

اليوم. ثم أعادها إلى أقفاصها، الواحد تلو الآخر، من دون أن يقدم إليها الطعام لتكتفي ببعض المياه التي وضعها لها في الدلاء المعلقة بالقضبان. حتى هو لم يتناول شيئًا ولم يشرب شيئًا طوال اليوم تضامنًا معها في ذلك الاختبار. لقد شعر بفخر كبير لنجاح مخلوقاته الصغيرة في ذلك الاختبار، فلا شيء بعد ذلك اليوم سيعيق رحلة العودة إلى الوطن الحبيب.

تمددت سالومي قليلًا في مقعدها من دون تحريك ذراعيها أو ساقيها، إنما اكتفت بإرخاء عضلاتها. فلاحظت أن ملامح القلق قد امحت عن وجهها وحلت مكانها ابتسامة خجولة.

«إذًا، متى سيرحلون نهائيًّا؟» أجبت: «غدًا».

كان في إمكاني أن أجيب «حالًا»، لكن النور في الخارج قد بدأ يخفت كما حدث في غابة الصنوبر، والمطر قد توقف عن الهطول، لذلك قررت أنهم سينطلقون في الغد: من أجلها؛ من أجلي، ومن أجل السيد شو.

وها هو الغد قد وصل.

إنه يوم الرحيل. لطالما انتظره السيد شو. كان قد استأجر في السوق شاحنة صغيرة ليركبها مع حمامه في تلك الرحلة الأخيرة في اتجاه ما وراء الحدود. هو يعرف تمامًا ذلك المكان، فقد كبر فيه مع أمه، بعد أن عادوا من الجنوب في إثر انتهاء الحرب عام ١٩٥٦، وهو المكان الأقرب إلى مسقط رأسه، هناك عند الطرف الآخر من مصب نهر هان. لقد أحبت والدة السيد شو الاستقرار في تلك القرية

المهجورة بعد أن شعرت فيها بالتواصل مع عائلتها التي بقيت هناك، ومع زوجها الغائب وجدّها وكل من فقدته. كانت أحيانًا تحدّث ابنها عن الماضي وأيام بستان الإجاص حين لم يكن ينقصها شيء. لكنها بالكاد حدثته عن والده، فهو لم يكن سوى عامل مزرعة، لكنه كان جذابًا، طويل القامة وقوي البنية، وصوته كان جميلًا. كان يغنّى ما كان ذائعًا في ذلك العصر، وهذا ما جذبها إليه وجعلها تحمل منه. أما عائلتها فكانت تحتقره. وعندما اندلعت الحرب، رحل لينضم إلى قوات الشمال، فلم تعد تسمع عنه شيئًا. لذلك قررت الرحيل مع طفلها وعبرت النهر على ظهر عوامة إلى الجنوب في اتجاه بوهانغدونغ. ها هي الذكريات تعود إلى ذاكرة السيد شو، وخصوصًا أغنية أريرانغ، وهو يفتح أقفاص الطيور، الواحد تلو الآخر، فتمتلئ عيناه بالدموع.

«هيا، انطلقوا، اذهبوا وحلقوا عاليًا في السماء. عودوا إلى الوطن؛ إلى تلك المزرعة المدفونة في قعر الوادي. ستتعرفون حتمًا إليها بفضل أشجار الإجاص الجميلة. احملوا رسائلي إلى عائلتي وأقربائي وأبناء أعمامي وبناتهم، قولوا لهم إنني حيّ أُرزق. انقلوا إليهم الكلمات التي كتبتها لهم ولكل من بقي في الجهة الأخرى من النهر؛ كلمات الأمل والحب؛ كلمات الفرح والضحك؛ كلمات السعادة!»

أغمضت سالومي عينيها وسط إنارة بعض الظهر اللطيفة والدافئة. راحت تنصت إلى كلمات السيد شو وتتصور احتكاك الهواء بالأجنحة وحفيف الريش؛ ذلك الهواء الذي كان يرفع الطيور فوق النهر الكبير وفوق المياه الداكنة التي

ترتجف عند السطح وتتجعد مثلما يتجعد جلد الحيوان، وتتصور رائحة الأرض التي بدأت تفوح، وضجيج الحقول وانفجار الأصوات وضحكات الأطفال.

اسمعي كيف يهبّ الهواء من البحر، واستمتعي بهواء الصباح النقي. هيّا، تنفسي لتشعري به يلامس وجهك. سالومي، أنت تحلقين عاليًا وتسبحين في الفضاء في اتجاه الشمال نحو تلك الضفة. هذه آخر رحلة تقومين بها. هيا رافقي التنين الأسود وماسة والبقية. لا بد للهواء من أن يُثملك ويُبهر عينيك ويقطع أنفاسك. وتابعي التحليق، على الرغم من ذلك، تابعي حتى النهاية، إلى آخر المطاف، وافتحي ذراعيك لتحسي به يخترق جسمك. لقد أصبحت خفيفة مثل ريشة في مهبّ الريح أو بتلة وردة. النهر والجُزر تحتك، وهم يدفعون بكِ إلى الأعلى، إلى الشمال، إلى نقطة الوصول.

بقيت عينا سالومي مغمضتين وأنا أحدثها بصوت ينخفض تدريجيًّا ويتباطأ مع كل كلمة جديدة. ثم فتحت يديها على اتساعهما لتشعر بالهواء يتغلغل بين أصابعها وتنفست بعمق وراحت ترطب حلقها بمياه البحر المالحة وعسل البراري المزهرة وسيقان القصب الطويلة وهي تتلاطم في الهواء، وأوراق الشجر وأسوار الكاميليا التي تلمع تحت الشمس والسبل المتقاطعة. ولا أقصد بها الطرقات، وإنما الممرات المسيَّجة بالحجارة، والصفائح المعدنية الزرقاء التي تسقف القرية. كانت الكلمات هي التي تطير بها إلى فوق، لكنها لم تعد في حاجة إلى سماعها لأنها باتت تومض داخل رأسها مثل الصواريخ المشتعلة.

طار الحمام طوال النهار إلى أن هبط الليل، فحلق فوق الهضاب والوديان، ومرّ بحقول الأرز والسلجم الأصفر، وعبَر المصانع

ومحطات الفرز والقرى الرمادية وميادين الملاحة الجوية والبحيرات والأنهر. وعندما حل الليل تعرَّف الحمام إلى المكان الذي وُلد فيه سيّده؛ هناك في الوادي الضيق بين الجبلين حيث الأشجار المثمرة. فرسم حلقته الأخيرة في الفضاء وراح يغط الواحد تلو الآخر فوق أسطح مباني المزرعة. لم ينقص أحد ولم يضع أحد. ولما مشى على سطح المخزن، أحدث احتكاك أظافره بالمعدن صريرًا حادًّا، ثم أطلق من عمق حنجرته هديل السلام، أغنية ناعمة وحزينة، تحية حب تلقيها الحمائم عادة في ما بينها قبل التزاوج.

أغمضت سالومي عينيها وراحت تستمع إلى أصوات سكان المزرعة. فعلا أولًا صراخ الأولاد ما إن انتبهوا إلى وجود الطيور فوق سطح الاسطبل: هو-هو-هو! توافد لاحقًا، الكبار، الواحد تلو الآخر. أتت النساء بوزرات عملهن، ولحق بهن الرجال بوجوههم المسمرّة وقاماتهم الطويلة وأكتافهم العريضة وأيديهم المتحجرة من كثرة العمل. توقفوا كلهم عند بيت الاسمنت وراحوا يحدقون في الطيور الغريبة. فأسند أحدهم سلمًا إلى الحائط وصعد عليه بحذر، درجة درجة، ليمسك بالتنين الأسود من دون أي مطاردة أو مقاومة، إذ كان هذا الأخير متعبًا من رحلته وعاجزًا عن القتال. وعندما نزل الرجل مع العصفور عن السلّم أحاط بهما الجميع. ثم انضمت ماسة إليهم بعد أن حطت إلى جانب زوجها في رفرفة أو اثنتين ليتبعها لاحقًا الآخرون. حمل الصغار الطيور بين أكفهم بكل سرور، وصاحت فجأة فتاة صغيرة تدعى مي-سان: «انظروا إلى الرسالة المعلقة بالقدم!» ودلت بإصبعها على لفافة الورق الصغيرة،

ففتحها الرجل ثم هجأتها المرأة بصوت عالٍ. كانت الرسالة عبارة عن كلمة واحدة: المستقبل. كلمة سرية تناقلت بين الشفاه في أثناء فتح الرسائل المتبقية، وكانت تقتصر جميعها على كلمة واحدة. ثم تلفَّظ أحدهم بكلمة جاسوس، فأثارت الذعر بين الحاضرين ودفعتهم خطوة واحدة إلى الخلف، بعيدًا عن الحمام الذي بقي ينقد حبات الأرز التي نثرتها له مي-سان. كنا في منتصف النهار وحرارة شمس في بداية الشتاء تخترق الضباب لتلفح الوجوه كعادتها. وسمع السكان يتحدثون عن الغموض الذي يحيط بذلك الحمام وسبب وصوله إلى مزرعتهم. ثم تحدثوا عن عالم آخر؛ عن ضفة ثانية للنهر وعن عالم بقي غريبًا عنهم، والحمام لا يزال يدور على الأرض بين أقدام سكان مزرعة الإجاص الجماعية. تنتهي هنا الرحلة، وستكتب مي-سان ورفاقها، غدًا أو بعد غد على الأكثر، كلمةً جديدة على ورقة جديدة، ويلفونها حول قدم التنين الأسود وأخرى حول أقدام سائر طيور الحمام؛ كلمة واحدة فقط، مثل هناء أو حب أو سعادة، وسيمسكون بالطيور ويطلقونها في الفضاء لتحلق في طريق العودة.

نظرت إلى سالومي فوجدتها غارقة في كرسيها، محنية الرأس دامعة العينين. لم أفهم إذا كانت دموع فرح أو ألم. لقد وصلنا إلى نهاية القصة، والأحرى أنها نهاية الرحلة فأمسكت بيدها وشدَّت عليها مطولًا. كانت دافئة وجافة كأنها محمومة.

كنا في موعد الرعاية، فظهرت الممرضة عند باب الصالون بمئزرها الأبيض وهو يومض في الظل مثل ظهور إلهي، فتسللت بهدوء إلى الخارج من دون أن أودّع أحدًا. حقق أخيرًا السيد شو حلمه ونجح في العودة إلى أرضه، لذلك لم

يعد يرغب في أي شيء آخر. أصبح العالم في نظره رائعًا. لكن بالنسبة إلينا نحن الذين نعيش هنا، ما زلنا لم نحقق شيئًا بعد. ما زلنا لا نعرف طعم السعادة. ما زلنا نكتفي ببعض الأحلام وبعض الكلمات؛ بهواء ينبع من البحر ويدفع بريش الطيور في أثناء عبورها فوق النهر.

هذا هو واقعنا المرير.

تسبب موسم الشتاء لنا، أنا وسالومي، بتعب شديد، كما لو أن المياه التي اندفقت في الشوارع وتبخرت بعد ذلك فوق الأسفلت قد غسلتنا وعقّمتنا وعصرتنا وأفرغتنا من كل قوانا.

قررت الانتقال من تلك الغرفة في الطابق السفلي بعد أن أوشكت على إيذائي. فمياه المطر الغزير قد تسببت بظهور بقع مريبة على الجدران، ثم إن الفأر الذي توقف مدة عن اقتحام مسكني عاد مع أصدقائه ليقتلع لوحة الزنك التي ثبتها في الحائط من مكانها. صرت أسمع صرير أسنانه بوضوح كأنه هضم كريات الأرز الممزوجة بالزجاج وعاد ليعاقبني بأسنان تجرش آخر فتات الزجاج التي قدمتها إليه. هي عودة المنتقم! وفضلًا عن ذلك، بدأت أرى صراصير تزحف في الحمام (وهو في الواقع حوض استحمام مطلّ على مرحاض صيني)، إلا أن المثل يقول إذا رأيت فأرًا فتأكد من أنها عشرة، وإذا رأيت صرصورًا فتأكد من أنها مئة! لكنني لم أكن في مزاج للعدّ!

كنت قد حصلت من صديقة لأمي على عنوان سكن للإيجار في الطرف الثاني من المدينة، في أقصى الضواحي الجنوبية. في الواقع، لست واثقة إن كنا لا نزال هناك ضمن المدينة أو أننا تخطيناها لنصبح في القرية، لأنه كان عليّ أن أستقلّ المترو إلى محطة أوريو-دونغ، والرحلة إلى هناك تدوم أكثر من ساعة. فجهزت حقيبتي التي على الدواليب، وحقيبة أخرى أحملها على كتفي، وثالثة أحملها

على ظهري، وحشوتها كلها بأغراضي الشخصية وملابسي وشراشفي ووسادتي الصغيرة المصمَّمة على شكل أرنب، والتي قدمتها إليّ أمي عندما رحلت عن جيولا-دو. وانطلقت ذات صباح باكر قبل أن يستيقظ الحي، هربًا من صاحبة المُلك، حتى لا تطالبني بإيجار ثلاثة أشهر متأخرة، ومن المتربص، على الرغم من أنه اختفى نهائيًّا منذ بدء المطر، لعله ذاب مع رجل الثلج تحت أشعة الشمس. رحلت من دون أن أترك عنوانًا، ومن دون أسف. أعتقد أن الأشهر التي أمضيتها في حي إل سورديدو كانت الأسوأ في حياتي.

أُعجبت بالحي الجديد. كان يشبه شوارع قريتي القبيحة والمستقيمة، التي تخلو من متاجر مثيرة للاهتمام. وكان يخلو، على الأقل، من جحور الفئران. فسكنت في مبنى حجري يمتد على طول جادة مزروعة بنباتات هزيلة. كانت شقتي تقع في الطابق الثاني وتعلو مطعمًا يُقدّم أطباق الباستا الباردة، عرَّفتني إليه صاحبة الملك، وهي امرأة تدعى آن سو-يونغ، على اعتباره ميزة: «يمكنك الحضور في أي ساعة من اليوم مهما كانت متأخرة، وسيقدّمون إليك وجبات لذيذة لن تكلفك الكثير».

لم أتعرف إلى أحد في حي إل سورديدو. كنت أتفادى الجيران، وخصوصًا صاحبة الملك الجشعة. أما هنا في أوريو-دونغ، فتعرفت بسرعة إلى جيراني، ونشأت بيننا صداقة. معظمهم بسطاء، باستثناء مدرّس مادة الرياضيات في الثانوية التي تقع قرب جامعة سانغكونغهو وكان يسكن فوقي. وبينهم صانع أحذية اتخذ متجرًا في حاوية معدنية موضوعة قرب الجسر، ومدبراتُ منزل يعملن في شقق فندقية، ورباتُ منزل وموظفات في مكاتب في شيندوريم أو في ييونغدونغبو - كوشيونغ. كانوا يخرجون باكرًا في الصباح، فترافق الأمهات صغارهن إلى المدرسة، لذلك كنت قادرة على النوم لغاية الظهر وسط الهدوء

التام (لطالما أحببت الاستيقاظ على مهل، وكم من مرة تجادلت مع والدي بسبب ذلك، لأن العمل في سوق السمك يفرض عليك الاستيقاظ قبل بزوغ الفجر).

أحببت أيضًا محطة المترو الجديدة. فابتداءً من هابجيونغ تصبح الرحلة على «الخط ٢» جوية، لأنها تطير بك فوق النهر، وتمر في دانغسان تحت المباني الكبيرة، أما في شيندوريم فيخرج «الخط ١» من الأرض ليعبر الأحياء الشعبية والمباني الرديئة، المؤلفة من ثلاثة طوابق، يلتصق بعضها ببعض لغاية أوريو-دونغ. وكنت، خلال الرحلة، أرى الأحياء على اختلافها والمباني الحديثة والحدائق الواسعة والشوارع الحية، تليها من جديد المنازل الحجرية الصغيرة بالصفائح المعدنية عند الأسقف إلى أن أصل إلى أوريو-دونغ. وكان عليّ هناك أن أهبط السلالم وأعبر السكة الحديدية مشيًا على قدمَيَّ. فأحببت التقاطع الكبير بجاداته الواسعة والجسر الحديدي الملولب. كنت أتخايل أنني في أميركا، وأتصور جسر بروكلين الذي يشبه جسر أوريو-دونغ، أما الجادات والشوارع فتشبه تلك التي في أحياء نيويورك الشعبية، برونكس، كوينز. حتى إن اسم أوريو كان يعجبني، ويذكرني باسم حيّ في طوكيو (وهي عاصمة أخرى أحب أن أتعرف إليها).

تأقلمت سريعًا مع ذلك المكان الجديد. شعرت فجأة ولأول مرة في حياتي، بمطلق حريتي! إذ لم يعد لدي مَن أبرر له تحركاتي، كما أنني أصبحت بعيدة كل البعد عن عمتي والحلوة بايك هوا! وزال أي خطر في أن ألتقي بهما. وبالنسبة إلى دروس الفرنسية في هونغداي، نجحت في التفاوض من جديد مع مستغلتي يون-جا، فوافقت على المتابعة في تأمين الدروس الصباحية في مقابل إمضاء الليلة في مكتبها. ترددت قليلًا في البدء، لأن الإدارة لا تسمح بذلك، لكن رجل أمن المكاتب معتاد الانسحاب إلى غرفته باكرًا ليشاهد المسلسلات على

التلفزيون وهو في سريره، لذلك كان الصرح يبقى لي وحدي فأدخل للاستحمام وأستخدم المرافق الصحية من دون خطر الالتقاء بأحد. اشتريت فراشًا من سوق سيوداييمون كنت أطويه كل صباح وأحفظه في خزانة يون -جا. وبالنسبة إلى المواد الغذائية، كان المطبخ الصغير في آخر الرواق يحتوي على ميكروويف وغلاية، وهذا كل ما أنا في حاجة إليه لأتناول الرامیون وأشرب قهوتي في الصباح قبل أن تبدأ الحصص (الرامیون هو أفظع شيء على الإطلاق لأنه كثير التوابل والملح، وهذا ما يأكله طلاب الطبقة الفقيرة). سار كل شيء بامتياز، لذلك قلت إنني لم أشعر من قبل بأنني حرة هكذا في حياتي.

كنت أحب تدريس اللغة الفرنسية، فمعظم الطلاب (أو بالأحرى الطالبات، لأن مجموعة الثمانية عشر كانت تضم ذكرًا وحيدًا، وهو مخنث) تسجلوا في تلك الحصة لرفع المعدل في تخصصهم، إما في الرياضيات، وإما في العلوم الطبيعية، وإما في الفيزياء، وإما في الفلسفة. كنت أدرس النصوص في كتاب عنوانه «متعة القراءة»، وهو عنوان لكتاب روضة أكثر مما كان كتابًا جامعيًّا، ويتضمن تمارين في القواعد ونصوصًا نظرية غير مفهومة تمامًا. وكان على الطلاب أن يقرأوا النصوص ويغيّروا زمن الأفعال، أو يؤلفوا جملًا استفهامية وجمل نفي وجمل نفي استفهامية.

يبدو لي أن السفينة تتجه إلى الجزيرة.

لا يبدو لي أن السفينة تتجه إلى الجزيرة.

هل السفينة تتجه إلى الجزيرة، كما يبدو لي؟

ألا يبدو لي أن السفينة تتجه إلى الجزيرة؟

كنت أسترسل في الحلم بمعنى الكلمات، حين كان الطلاب يغرقون في مصاعب تركيب الجمل، وهذا أكثر ما كنت أحب القيام به، فأتصور سفينة في نهر هان مثلًا، تسبح ببطء في المياه من دون محرك، بقيادة رجل يقف في مؤخرتها، حاملًا بيده مجذافًا طويلًا يدفعه بهدوء إلى جزيرة البط (وهي، في رأيي، أفضل جزيرة في ذلك النهر)، فينشقّ انعكاس المياه الراكدة مفتعلًا تيارات عكسية، لتنبع بين الحين والآخر فقاعات من القعر. وهذا ما دفعني إلى التفكير في السفينة التي عبرت بوالدة السيد شو وطفلها وأزواج الحمام قبل أكثر من خمسين عامًا إلى هنا. كان البط حينها موجودًا إلا أنه لم يهرب من القصف لأن الطائرة والشاحنة والسفينة في نظره أمر واحد.

في تلك الحصص، أي في لحظات الصمت أو اجتهاد الطلاب في قراءة النصوص الفرنسية ومحاولة تقليدهم للألفاظ في لغة تميز بين حرفي الـ p والـ b وبين اللفظ المفرد والجمع، وتستوجب وضع اللسان في أعلى الفم عند الحفرة الداخلية للأنف لتصيب تلك الأصوات غير العادية التي تخرج من الأنف، حينها كنت أبدأ قصة جديدة في مخيلتي لأخبرها لاحقًا لسالومي، فأراها تفتح عينيها وأسمعها تتنفس بعمق. ولدت نابي المغنية في مثل تلك الحصص.

مكتبة
t.me/soramnqraa

قصة المغنية نابي
التي رويتها لسالومي، أيلول/سبتمبر ٢٠١٦

وصلت نابي إلى سيول، وهي لا تزال صغيرة. كانت في الثانية عشرة من عمرها، على ما أعتقد. فتاة جميلة من مدينة صغيرة تدعى ييونغوول التي تقع في مقاطعة غانغوون-دو. اسمها الحقيقي كوون هيانغ سو، وقد شاء القدر أن تحمل ذلك الاسم الذي يعني «عطر المياه»، ويعني أيضًا «الحنين». لم تحب شيئًا في حياتها أكثر من الغناء، وذلك منذ نعومة أظفارها. فما إن بدأت ترافق جدتها إلى الكنيسة المسيحية حتى انضمت إلى الجوقة لتغني التراتيل وتصفّق بيديها وهي تتلوى وتتأرجح. وأُعجب بها المصلون، وخصوصًا الذكور منهم. لكن جدتها كانت سيدة عجوزًا صارمة ومتسلطة من الطراز القديم، لذلك لم تحبذ الأمر يومًا.

«لا تهزّي وأنت تغنين. احذري إبليس، فهو موجود في كل مكان، حتى في بيت اللّه».

لكن نابي لم تأبه لكلامها، كانت ما إن تبدأ بالترتيل، حتى تشعر بالموسيقى تجري في عروقها وتتموج داخل جسمها، فيصفى عندئذ

صوتها ويقوى فيغطي على سائر الأصوات، وتنفرد هي بالغناء وراء الميكروفون، فيرافقها المصلون في التصفيق على إيقاع الترتيلة، ويبتعد حينها القس عن البيانو ليتمكن من سماعها جيدًا ومراقبتها بوضوح.

كانت هيانغ سو جميلة، لكنها لم تكن طويلة. كانت تبدو في الثانية عشرة من العمر، وهي في الرابعة عشرة، وحلمتا ثدييها منتفختان تحت قميصها. كانت تحب الفساتين الجميلة التي تُبرز ساقيها وبطتيها الصلبتين. وقد تعلمت المشي مقوسة الظهر بعد أن قرأت في إحدى المجلات أنه سيساعدها على إبراز ردفيها وإيهام الآخرين بكبر حجمهما. وكان القس رندال (لم يكن اسمه الحقيقي، لكنه اختاره لنفسه لما عاش في الولايات المتحدة) يرحب بها في الكنيسة: «أهلًا بذات الساقين الجميلتين!» هذا الأمر لم يعجب جدتها، لكنها لم تجرؤ على التعليق عليه، لأن القس في النهاية يمثل الكنيسة، كما أنه متزوج من امرأة تكبره سنًّا، فذلك واضح في خصلها الرمادية وردفيها العريضين، ولم يكن جائزًا أن يوجه أحد إليها أي انتقاد. كما قيل إنها الآمرة الناهية في الكنيسة، وإنها من تكتب عظات يوم الأحد.

كانت الكنيسة المسيحية عبارة عن صالة تقع في الطابق الأرضي لمبنى عصري، بابها ذو مصراعين يُذكّر بمدخل مرأب أو باب ملهى ليلي. كانت تسع لأربعمئة شخص، فيها منصة وشاشة عملاقة مثل التي نجدها في دُور السينما. وكانت هيانغ سو تأتي إليها كل يوم

أحد لتغني مع الجوقة المؤلفة من ستة صبيان وست بنات، كلهم يرتدون بزّات بيضاء وزرقاء. وما كان يسمح إلا لِهيانغ سو بأن تصعد إليها بفستان جميل أو بنطلون جينز وقميص أبيض، كونها نجمة العرض. وكانت ما إن تبدأ بغناء الترانيم بالكورية والإنكليزية على طريقة الجاز حتى يبتعد القس رندال عن البيانو ويطلّ شاب بقيثارته الكهربائية ليرافق غناءها بعزف موسيقى الريتم والبلوز.

كانت هيانغ سو تنتظر تلك اللحظات بفارغ الصبر. وما إن تصعد إلى المنصة حتى تشعر في داخلها بشيء مختلف كأنها أصبحت امرأة ناضجة وهي لا تزال طفلة تتلقى الأوامر؛ امرأة تعرف ماذا تريد وتعرف كيف تفرض احترامها. كانت ما إن تتوقف عن الغناء، حتى تعصف الصالة بالتصفيق، وهذا أيضًا أقلق جدتها: «يبدو أنهم نسوا أين هم، وكأننا في ملهى ليلي!»

لم تكن جدة هيانغ سو تحترم القس رندال. كما كان في نظر الآخرين رجلًا بلا قيمة. وقد أصبح قسًّا بعد أن رشا من سبقه الذي كان رجلًا عجوزًا كفوءًا، لكنه ساذج، دفع إليه المال ليجمع من حوله الأصوات المؤثرة في مجتمعه، وخصوصًا أصوات الأرامل المتقدمات في السن والنساء الميسورات اللواتي سُحرن به وبهداياه.

كانت جدة هيانغ سو قاسية على حفيدتها، وكريمةً في الوقت نفسه. حاولت ملء الفراغ الذي تركته والدتها بتخليها عن زوجها وابنتها للهرب مع رجل آخر. وكان والد هيانغ سو غير نافع؛ زير نساء وكاذبًا مخادعًا، يغرف بلا تردد من صندوق الكنيسة ليراهن

في سباق الأحصنة، أو يشتري العطور لعشيقاته. لكن الجدة كانت متساهلة معه كونه ابنها الصغير وآخر العنقود، لذلك كانت تغض النظر عن كثير من أفعاله. وقدمت كل حبها إلى حفيدتها وخدمة الكنيسة. لذلك لم يزعجها أن تتمتع هيانغ سو بصوت عذب وساقين جميلتين تجذب بهما مناصرين جددًا للكنيسة. وكانت تقول إن أي شيء يساهم في خدمة السيد المسيح مرحَّب به.

كانت هيانغ سو، في ذلك الوقت، تسكن منزل جدتها مع عمتها وزوجها الشرير، وهو رجل قصير القامة وعصبي، إلا أن الجميع كان تحت إمرة العجوز. بدت أمورهم في الظاهر طبيعية. حتى جيسيوك، والد هيانغ سو (لكنه كان يفضّل أن يدعوه بجاك جايب، أنه يلائم أكثر نشاطاته كناشر)، كان قادرًا على إيهام الآخرين بأنه يعيش حياة طبيعية ومنظمة. كانت العائلة تجتمع كل صباح في الصالة المجاورة للكنيسة لتناول الفطور، وعندما تنتهي توزع الجدة تعليماتها على الجميع، ثم تذهب هيانغ سو إلى المدرسة المجاورة. وكانت تجهد هناك في إنهاء دروس الصف الثالث المتوسط. لم تكن تكره المدرسة، لكنها كانت بعيدة كل البعد عن أجوائها، فما يقال فيها وما تتحدث به رفيقاتها في الصف من مواضيع تسوُّق وتبرُّج ومصاحبة شبان ومسابقات رياضية ومسلسلات تلفزيونية، كان غريبًا عنها. وعلى الرغم من أن الجدة كانت تملك جهاز تلفاز، فإنه كان يُستخدم لمشاهدة البرامج الدينية المسيحية. وبرنامج التسلية الوحيد الذي شاهدته هيانغ سو وأُغرمت به، كان فيلم نارنيا. وسُمح

لها بمشاهدته لِما فيه من عبرة. فقد شرحت لها جدتها أن الأسد يمثل السيد المسيح، وسلّطت الضوء على المعارك التي خاضها المسيحيون الأصليون ليشقوا طريقهم في زمن الإلحاد.

دق الحظ باب هيانغ سو في تلك الفترة، وجاءتها الفرصة لتتحول هوايتها إلى احتراف. وقد جاءت في رسالة من فريق إنتاج كان يبحث عن مرشحين ومرشحات لتسجيل تراتيل وأغانٍ دينية، فاستدعاها القس راندال إلى مكتبه. لم يحدّث أحدًا بالموضوع، باستثنائها هي، لعلها تريد أن تصبح المغنية التي تبحث عنها تلك الشركة. فشعرت الفتاة بدقات قلبها تتسارع. كانت تتمنى سماع ما قاله راندال منذ وقت طويل، حتى لو أنها لم تؤمن بأنه قد يتحقق ذات يوم، وبأن الساعة ستحين لتهب نفسها لأكثر ما تحبه في هذه الحياة. وشعرت بالقلق في الوقت نفسه؛ إذ شكّت في موافقة جدتها على الموضوع. فالغناء ضمن جوقة الكنيسة للمؤمنين أمر، والغناء مع منتجين لجني المال أمر مختلف. وقفت جامدة أمام الرجل الكبير، يداها مشبوكتان وراء ظهرها وأصابعها تتقاطع استنجادًا بالحظّ. لم تعرف بما تجيب، وشعرت باحمرار وجنتيها وخجلت من أن يلاحظ ذلك.

حدثت، في اليوم التالي، تجربة الأداء في مكاتب شركة الإنتاج جيريشو في الطرف الثاني من المدينة. ذهبت هيانغ سو إلى المقابلة في المترو، رأت القس راندال يقف وسط المجموعة الصغيرة عند مدخل المبنى. فقادتها امرأة أنيقة ومتعجرفة قليلًا إلى داخل

الاستوديو، وقامت بأداء أغنية إنكليزية تم اختيارها بالاتفاق مع راندال. كان لحنًا لا تعرفه جيدًا، وسمعته مرة على الراديو:

يا ملك الملوك

يا أيها الجليل الرفيع

يا ممجدًا في الجنة

[...]

ها أنا أعبدك

ها أنا أنحني أمام عظمتك(١)

تنفست هيانغ سو بعمق، ثم عقفت ظهرها وبدأت تصدح في الغناء من دون موسيقى. علا اللحن لاحقًا وأسرها، فتابعت الغناء وهي تغمض عينيها وتتأرجح كما لو أنها واقفة على منصة الكنيسة أمام الحضور:

ها أنا أعبدك

ها أنا أنحني أمام عظمتك(٢)

عندما انتهت من الغناء، فتحت عينيها ووجدت مهندسي

---

(١) Roi de tous les temps/Oh, si grandement loué/Glorieux dans les Cieux/Me voici pour te vénérer/Me voici pour me prosterner...

(٢) Me voici pour te vénérer/Me voici pour me prosterner...

الصوت والمرأة الأنيقة وراندال يحدقون جميعًا فيها. ففهمت من نظراتهم أن الاختيار وقع عليها وبدأت ترتجف. في أثناء المغادرة اضطرت إلى الاستناد إلى ذراع القس. شعرت بعد التوقيع على العقد كأنها تولد من جديد، وكأنها تدخل عالمًا جديدًا أو تتنفس تحت شمس جديدة. كانت مستعجلة لتخبر جدتها، لكنها اعترضت بشدة على توقيع العقد:

«كيف يمكن لفتاة في السادسة عشرة من عمرها أن توقّع على عقد كهذا؟ يا للسخافة، مزّقي الأوراق ولا تفكري في الأمر».

وتبع ذلك أسابيع صعبة لم تجرؤ خلالها هيانغ سو على مفاتحة العجوز في الموضوع. وبقيت فكرة أن تصبح مغنية وتعيش حياة جديدة تدور في رأسها ليلًا نهارًا، وخصوصًا في الليل، إلى أن تسببت لها بالدوار.

قرر راندال أن يبدّل رأي العجوز المتزمتة. «هذا من أجل الدين وليس للتسلية. تتمتع الفتاة بموهبة إلهية، ولا يحق لأيّ كان أن يلغيها». استسلمت العجوز في نهاية الأمر، وتمكنت هيانغ سو من متابعة تسجيل الأغاني مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع شرط ألا يتعارض ذلك مع واجباتها الدينية والمدرسية. واستدعى راندال هيانغ سو، ذات يوم، إلى مكتبه لينقل إليها الخبر الجميل. كان ذلك في منتصف الأسبوع، قبل أن تحين الظهيرة، في ساعة يكون فيها المبنى خاليًا. فذهبت هيانغ سو للقائه وقلبها يخفق بعد أن لمّح إليها بأنها حظيت أخيرًا بموافقة جدتها، وباتت قادرة على متابعة

التسجيلات لتصبح قريبًا نجمة جيريشو. لكن ما لم تحسب له هيانغ سو كان الفخ الذي نصبه لها الرجل.

«اقتربي يا صغيرتي»، قال راندال وهي تدخل. كانت الحرارة في بعد ظهر ذلك اليوم تشتعل داخل الغرفة بعد أن اخترقت أشعة الشمس الستائر الحمراء المغلقة. والمكان قد غرق عند الشفق في السكون التام بعد أن أغلقت أبواب الكنيسة، فشعرت هيانغ سو بقلبها ينبض داخل صدرها وبيديها تشتبكان وراء ظهرها من كثرة التوتر. «اقتربي يا صغيرتي، لا تخافي، فنحن نعرف بعضنا البعض منذ وقت طويل!»

لمَ يحدّثها بهذه الطريقة؟ صوته غريب ولا يشبه صوت القس راندال الذي يصدح كل أحد في أثناء الذبيحة الإلهية. لم يعد ذلك الصوت الناعم المطمئن الذي يرنّم مصرًّا على حرفي الـa والـo اللاتينيين، ويصدح عاليًا الـtch والـkkk. ولمَ نَفَسه حاد، لمَ يزفر هكذا بأسنانه التي يضغط بعضها على بعض كما لو أنه يفضي بسرّ؟ استمعت هيانغ سو إليه وهي عاجزة عن الحراك والاقتراب من المكتب، كما طلب منها أن تفعل، ولا عن التراجع أيضًا، فقد شعرت بقدميها ملتصقتين بالأرض، وبقيت مسمَّرة فوق الأرض الخشبية، بالكاد تقدر على التنفس، تخفض عينيها وتنتظر ماذا سيحدث، ولن يتأخر في الوصول كما في الحلم المزعج.

«هيانغ سو، يا هيانغ سو، أنا أفكر بك طوال الوقت، يا صاحبة الساقين الجميلتين، هل تعرفين أنك تضيئين لياليَّ؟»

لم يبتعد القس رندال عن مكتبه، لكن جسمه الغليظ مال إلى الأمام وانزلق ببطء عن كرسيه إلى أن أصبح على بعد سنتمترات منها. هذا ما أحست به ولو أنها لم تَرَه حقًا. بدا لها أن ذلك الرجل التافه جدًّا والقاسي جدًّا، والمتحفظ جدًّا، تحول فجأة إلى أفعى تزحف وتتسكّع فوق الطاولة. ثم قرّب وجهه من بطنها وصدرها فشعرت فوق فستانها، هناك في نصفه الأعلى، بنَفَسه الدافئ وهو يتكلم، لكنها لم تكن قادرة على فهم المضمون. كل ما كانت تسمعه هو همس لكلمات يتردد بنبرات منخفضة وملحّة، تليه تنهدات، ويليها صمت.

«... يا ذات الساقين الجميلتين، يا ذات الساقين الجميلتين..». ردد الصوت، وهيانغ سو تتساءل إذا كانت هي المقصودة، وإذا كان يتحدث عن ساقيها وجسدها. نظرت إليه، فرأت قطرات عرقه تلمع فوق جبينه؛ هناك حيث ينحسر الشعر وعند حاجبيه الأشعثين. ورأت أعلى جفنيه الرمادي المجعد وباقي جسمه والقميص الأبيض المتجعد عند القبة. كانت ذراعاه مسنودتين إلى الطاولة، ويداه تزحفان مثل الحيوانات الداكنة الغليظة، تطوف على سطحهما شرايين متشعبة مثل أغصان الشجر. أما كفاه فكانتا تزحفان ببطء فوق ساقيها إلى الأعلى، إلى الأماكن المحظورة.

توقفت عن الكلام ونظرت إلى سالومي، فوجدت رأسها ملتويًا كما لو أنها فقدت القوة في عنقها، لذلك لم يعد قادرًا على أن يسند الرأس. ولاحظت أن بشرة وجهها أصبحت من لون التراب. كانت تغمض جفنيها، وما إن توقفت عن الكلام، حتى فتحت عينيها ونظرت إليّ. عجزت عن قراءة نظراتها: هل

عكست خوفًا، أم غضبًا؟ وفيمَ كانت تفكر؟ هل كانت تأمل أن أخبرها بقصص خيالية، وأتخيَّل لها بلدانًا وهمية حيث تعيش الأميرات؟ عندما كانت العمة مي-كيوونغ تروي لنا قصصًا عن الغول والكلاب البرية الأفريقية، وقصص والغيشين والساحرات، وهي تداعب شعري، كنت أشعر برعشة لطيفة نشعر بها عادة عندما ننظر عبر باب محظور ونكتشف خلفه عالمًا مظلمًا مشؤومًا قريبًا من الواقع ومن حياتي. هذا بالتحديد ما أردت أن أقدمه إلى سالومي.

«ماذا جرى لاحقًا، أخبريني أرجوك يا أوني!»

لقد دعتني بأوني، أي أختها البكر، كما كنت أدعو مي-كيوونغ، بصوت طفولي كئيب. أدركت فجأة ماذا أصبحت تمثّل لي، وكأنها أختي الصغيرة أو تحفتي التي تعتمد على كلماتي وأحلامي. لا أدري السبب، لكنني شعرت بأن هذا الاكتشاف الذي يُفترض به أن يُفرحني، قد عكر مزاجي من دون سبب وجيه، وتسبب لي بنوع من الدوار. انقلبت الأدوار فجأة، فبعد أن كنت خادمتها، أو موظفة تتقاضى ٥٠ ٠٠٠ ون، أو دمية تحركها سيدة عجوز محترمة، أصبحت سيدتها وعليها إطاعتي في خيالها وهي مغمضة العينين على الرغم من كل التعقيدات، كما عليها أن تبقى تحت رحمة كلماتي ورغباتي. أصبحت لدي السلطة لأقرر المتابعة أو إيقاف الوقت الفائض على حياتها، وإرجاء ساعة موتها.

خفت الضوء فوق الستائر الحمراء التي تحجب الشمس عن عيني سالومي بعد أن أصبحت عاجزة عن النظر إليها بسبب مرضها. وعندما اشتكت من الإنارة التي تتسبب لها بألم في أعماق عينيها، اشتريت لها من صيدلية شارع الموضة في إيوها، نظارات شمسية تميل إلى الزرقة. فجرّبتها، ثم وضعتها على الطاولة إلى جانبها، ولم أرَها بعد ذلك. وفهمت أنها لا تريد التنكر بما أنها لم تعلق على الموضوع، وتفضل مواجهة مشكلاتها على انفراد.

ما حدث ذلك اليوم في مكتب القس راندال كان بداية لغرق هيانغ سو. لم تخبر أحدًا بالأمر، وخصوصًا جدَّتها، لكنها توقفت بين ليلة وضحاها عن الذهاب إلى الكنيسة من دون أن تقدم تبريرًا. وعندما قالت لها جدتها: «هيانغ سو، يا صغيري، مكانك هو في الجوقة»، اكتفت بالنظر بعيدًا بلا تعليق، وظهرت في عينيها نظرة حزن وانغلاق منعت الجدة من الإصرار. وبدأت لاحقًا تتردد على فرقة موسيقية تتألف من شبان يكبرونها سنًّا، ويعزفون موسيقى الروك كل مساء في الملاهي الليلية، فأصبحت مغنية تلك الفرقة. عندئذ قال لها عازف الكمان، وكان شابًّا طويلًا يدعى دافيد شوا: «الآن وقد أصبحت تغنين في فرقة، عليك أن تجدي لنفسك اسمًا». لم يكن لديها مانع في ذلك، لأنها كانت تريد التخلص من ذلك الاسم الذي يذكّرها بطفولتها، فاختارت اسم الحشرة «نابي». فكرت أولًا في اختيار اسم مودانغبيول، لكثرة حبها لتلك الحشرات الصغيرة ببقعها الحمراء، والتي تغطّ أحيانًا على اليد ثم تطير مستقيمة في الهواء متممة مهمتها السرية. لكن اسم نابي كان أقصر. ثم فكرت في أن حشرة المودانغبيول حساسة جدًّا وتقع بسهولة في فخ العناكب. كما أن العنكبوت كان اسم مغنيتها المفضلة. هكذا أصبحت نابي في ذلك الوقت، وبقيت على تلك الحال طوال الوقت.

تعبت من رواية تلك القصة، وتعبت سالومي من الاستماع إليّ. رأيت ذلك في ثقل نظرتها بعد أن أصبح جفناها بلون الرماد. لم نحتسِ الشاي في هذه المرة لأنني لم أكن أتحلى بالقوة لأنتظر الماء حتى يغلي وأسكبه لاحقًا فوق أكياس الشاي، في إبريق الشاي. لعل قصة نابي أفرغتنا من الطاقة، ولعلها من تلك القصص التي لا نرغب في سماع نهايتها.

رحلت من دون أن أودّعها ومن دون إلقاء التحية على الممرضة التي كانت تجلس في المطبخ وتنقر بإصبعها على الهاتف. هل نتوقع الكثير في غياب فسحة أمل؟ هذا ما هي عليه حياة سالومي، أو على الأقل بخصوص الوقت المتبقي لها في هذه الحياة. حدثتني صديقتي يوري، وهي طبيبة متمرّنة في مستشفى يونغسي، تنهي تخصصها بعلم الأمراض الوبائية، عن متلازمة الألم الناحي المركب وهو المرض الذي تعانيه سالومي، قالت إنه داء لا دواء له إذ لم يكتشفوا بعد كل نواحيه. فهذا المرض يُضعف القوى الحيوية تدريجيًّا مثل الوردة التي تذبل ببطء، فتتلاشى وظائف الجسم يومًا بعد يوم، وليلةً أرق بعد ليلة، باستثناء وظيفة الدماغ والخيال والقلق والتطلع إلى السعادة والضغينة والغيرة وحياكة المؤامرات الشريرة. عندئذ يصبح المريض مثل مركبة ضائعة في الفضاء، ورأسه عاجز عن إعطاء أوامره، فلا يقودها إلا إلى الغرق. قالت يوري: «هذا ليس مرضًا، يا بِتنا، بل لعنة». فدُهشت بذلك الوصف وفهمت في الوقت نفسه قصدها، فيوري فتاة متدينة، مسيحية تقليدية كما يقال، تتذكر سفر أيوب على سريره الحقير، ينخره ألم لا اسم له، وعليه تحمُّله لأنه مشيئة اللّه. على الإنسان أن يكون متواضعًا، أعرف ذلك، وأن يدرك أنه نكرة وأن يكفَّ عن التمرد على الحياة. لكنني أميل أكثر إلى البوذية، حتى لو أنني لا أؤمن حقًّا بالتقمص. أعتقد أن الحياة محيط نستحم فيه كلنا، والموت سيحملنا لاحقًا إلى حياة أخرى لا نعرف عنها شيئًا. وأعتقد أننا مرتبطون، بعضنا ببعض، الصغار مرتبطون بآبائهم والآباء بذريتهم وأولئك الذين لم يولدوا بعد يؤثّرون في الذين وُلدوا، ويمدون أيديهم إلى الذين وُلدوا ثم رحلوا...

«أوني، خفت ألا تعودي مجددًا..».

حاولت سالومي الجلوس مستقيمة في مقعدها فانزلقت الوسادة التي تسند ظهرها. حاولت الإمساك بها فتسببت بانزلاق البطانية ذات المربعات

التي تغطي ساقيها على الرغم من حرارة الطقس التي ارتفعت بعد الإعصار. فرأيت ساقيها، وهما عضوان أبيضان هزيلان ينطويان تحتها. كانت تتخذ وضعية السائس الذي يعدو فوق حصان غير مرئي. أعدتُ الغطاء بلطف إلى مكانه كما لو أنني فعلًا أختها البكر، ورأيت يدها تبتعد عن المسند لتلامس وجهي وتداعب شعري.

«متى ستُنهين قصة نابي الحزينة!» قالتها بنبرة متلاعبة زائفة، كذّبها صوتها المخنوق من القلق. فأجبت بالمثل:

«فلنُنهها الآن، وسوف أنهي لاحقًا قصة القاتل المبتدئ، ثم أخبرك بقصة التنينين». فصفقت سالومي من أعماقها: «أجل، أرجوك، فأنا أعشق القصص الخيالية!».

هل كانت سالومي من لقّن الدرس للممرضة؟ إذ دخلت السيدة وانغ (وهذا اسمها الملكي) الصالون حاملة صينية عليها إبريق الشاي والفناجين وحلوى الكيك الجاف التي اشترتها من متجر تو لي جور (Tous les jours). كيف خمَّنت سالومي أنني لم أتناول شيئًا منذ ليلة البارحة، بسبب النقود. لعلها حنكة الأرواح المتألمة. لقد فهمت أنني عدت اليوم لأُنهي القصة التي بدأتها بالأمس وأتقاضى ثمن كل قصة ٥٠ ٠٠٠ ون عدًّا ونقدًا.

أصبحت نابي تعيش حياة مختلفة عن السابق. لقد تركت منزل جدتها من دون إعلام مسبق. وقفزت، ذات يوم، من نافذة الطابق الأرضي إلى الشارع من دون أن تحمل معها أغراضها الشخصية أو أيّ مال. واستقرت في استوديو التسجيل الخاص بالفرقة. كان دافيد شوا من دعاها إليه، في الطابق السفلي من مبنى يقع في الحي الجنوبي، في أحد الشوارع القصيرة التي تحيط بمحطة جيوداي. واشترى

لها الشبان فراشًا، كما أنهم دفعوا بالأثاث والآلات الإلكترونية إلى الحائط، وكانت هناك مغسلة ومرحاض في الطابق السفلي، فشعرت بالدفء والسكون والحميمية.

أصبحت تستيقظ كل ليلة من نومها لتستقبل الشبان فيعزفوا موسيقاهم وهي تغني ما كتبوه. وصارت لاحقًا تؤلف الكلمات وتلحنها وهم يكتفون بالعزف، لتكون تلك الفترة الأفضل في حياتها، بعد أن ملأ صوت الموسيقى ذلك الاستوديو الصغير، وقرع على جدرانه وسقفه في محاولة للهرب إلى الخارج. وهي تتلفظ بالكلمات، أحيانًا بالصراخ، وأخرى بصوت منخفض وأجش. ثم قال لها شوا إن صوتها مثير وجليل، لكن عليها أن تتمايل في أثناء الغناء، إذ يبدو أن هذا ما يتوقعه الناس من مغنية روك، لكن نابي قررت البقاء جامدة ومحدودبة طوال الوقت. وأصبح بنطلون الجينز والقميص الأبيض زيّها الرسمي، ثم اعتمده الشبان بدورهم، فاستبدلوا سراويلهم القصيرة وقمصانهم القطنية ببنطلونات جينز سوداء وقمصان بيضاء بأكمام طويلة، حتى إنهم غيروا أسماءهم فلم تعد «فلامين» و«دكستر» و«إنتروس»، ولم تعد جينز أسود وقميصًا أبيض، بل أصبحت أسماؤهم نابي بكل بساطة. فقد حملوا اسمها، وعزفوا لها، وعاشوا من أجلها.

أحبت سالومي هذا الجزء من القصة، وانعكس ذلك في عينيها المشعتين وفي الابتسامة التي شقت شفتيها. من الواضح أنها حاولت تصور الاستوديو الصغير والموسيقى التي تعلو فيه والنقر على الطبل الذي يصدح عبر الجدران،

كما حاولت تصور الصغيرة هيانغ سو وهي تقف ثابتة وسط الغرفة بخُصلها السوداء التي تلمع تحت شعاع اللمبة الكهربائية في السقف، وصوتها المنخفض وهو أعلى من الموسيقى، تنطق بكلمات لا تتمة لها؛ كلمات حرة؛ كلمات أقوى من الأفعال وأقوى من الموت نفسه...

توالت بعد ذلك الأحداث بسرعة بالنسبة إلى فرقة نابي.

انتشرت أخبار مغنية جيريشو على الإنترنت، واستغل الشبان ذلك ليتصلوا بمتعهدي الجولات وينظموا سهرات خاصة وحفلات غنائية في ملاهي غانغنام، وفي الأعياد الرسمية عند المنصة المبنية أمام المركز التجاري في محطة سينشون، في إينشيون. فلفتت انتباه أحد المصورين، وكان رجلًا متقدمًا في السن وغريب الأطوار، يملك استوديو يدعى «بيرل أندر غراوند» في ييويدو. فحوّل لها الاستوديو إلى بيت للعصافير (استوحى ذلك بالطبع من اسمها)، ووضع فيه عصافير من كل الألوان وفراشات أيضًا لتطير كلها بحرية فوق أغصان المانيوليا المزروعة في الأحواض. لم تتصور نابي شيئًا كهذا من قبل، فشعرت كأنها في حلم يقظة. كما أن صور نام جيل كانت مدهشة، فقد كبّر لها وجهها في صورة غطت حائطًا بكامله وعكس البؤبؤ المتسع في عينيها بحرًا من الرصاص. وليتمكن من توسيع البؤبؤ قدم إليها شرابًا غريبًا حضّره بنبتة الداتورا الحمراء، فاستمر حلمها طويلًا على الرغم من انتهاء جلسة التصوير... كان نام جيل رجلًا لطيفًا وبدينًا بعض الشيء، مثل هر غليظ، أو مثل دمية الدب، وقد استسلمت نابي لحبه وغفت بين ذراعيه طوال بعض

الظهر وهو يهمس كلامًا جميلًا في أذنها طوال الوقت. فمنذ زمن بعيد لم يحدث شيء لطيف في حياتها مثل هذا. منذ السهرات التي قضتها مع مي-كيونغ، قريبة عمتها، عندما كانت تجلس لتستمع إلى قصص الساحرات والذئاب.

انتبهت سالومي لكل كلمة قلتها كما لو أنني أروي قصتها الشخصية. لقد أدركت أخيرًا أنني لا أؤلف شيئًا، وأنني لم أنجح يومًا في التأليف، وأن كل ما كنت أقوم به هو تغيير الأسماء وتصور الأماكن. لكنها لم تدرك بالطبع أنه لديّ أنا أيضًا عمة تدعى مي-كيونغ، وأنها فازت في بطولة إخافة الصغار.

«وذلك المصوّر نام جيل، هل كان صديقًا؟»

- بالطبع لا، هو ذئب مثل راندال والباقين. ونابي فريسته، كما كانت فريسة المتربص. تعرفين ما يقال في الإنجيل، نعجة وسط الذئاب. هذا ما كُتب لها. لذلك لم ترغب جدتها في أن تحترف الغناء بعيدًا عن الكنيسة، كانت تعرف ما الذي ينتظرها، لكنها لم تنجح في منعها. وكان على نابي المضيّ في ما اختارته لنفسها حتى النهاية.

أعتقد أن سالومي ارتعشت لدى سماعها تلك الكلمات. كنت أعرف أن تلك القصص ليست مجرد قصص بالنسبة إليها، وإنما هي أحاسيس تمسها في الصميم وتحرق بشرتها، هي إبرة تنكزها في مفاصلها، هناك عند التقاء العظمتين، كما أنها أمواج مضطربة وراء جفنيها. هي التي تطلبها وهي التي تتألم لسماعها وتخاف منها. ثم أحسست بدقات قلبها تخترق سطح ساعديها، ورأيت نبضها يتسارع عند رقبتها الملتوية، عند الحلق. إلا أنني كنت سأتابع بأي ثمن، ففي كل الأحوال، ستسرق أيّ قصة أرويها لها لحظةً من حياتها.

أصبحت هيانغ سو مشهورة باسم نابي، وباتت عشيقة المصور نام جيل. لكن ذلك لم يعجب الشبان الثلاثة لأنهم كانوا مغرمين بها. إلا أن علاقتها بهم لم تتعدَّ المزاح، بين حفلة موسيقية وأخرى، مرة مع هذا وأخرى مع ذاك، وأحيانًا مع الثلاثة في الوقت نفسه في أثناء الغناء في الملاهي وسط الحرارة المرتفعة، وتحت الإنارة المسلطة عليهم مثل برق كهربائي. أما العلاقة بنام جيل فكانت مختلفة. تطورت في الاستوديو وسط النبات المتشعب وزقزقة العصافير. فك صدريتها ذات يوم وبدأ يقبّل ثدييها، ثم مارسا الحب بألطف ما يكون. وعلى الرغم من أنها لم تشعر بالإثارة، فإنها أحبت ذلك التقارب مع جسمها ورائحة المسك التي فرزتها بشرتها، وشعرها الطويل الذي خبأ وجهها بعد أن فك نام جيل رباطه. ونُشرت لاحقًا صورها في مجلات سيول والولايات المتحدة، وفي مجلة الموضة «فوغ» و«اسكواير» و«فوربس»، ثم نُشرت في الوقت نفسه في مختلف أنحاء العالمَ كالمكسيك وإنكلترا وفرنسا. ولم يعد يتوجب على متعهد الجولات مناقشة ساعات ظهورها في وقت الذروة، لأن الدعوات باتت تصلها إلى عقر دارها لتقبل بالظهور في تلك الأوقات بعد أن أصبحت شخصية مهمة ونجمة أغلفة. ثم أقال نام جيل المتعهد وأصبح هو المنتج والحامي، وربما المستفيد. كان نسخة عن أولئك الشبان الذين لم يتأخروا في الشعور بالألم جراء استلامهم الدعوة لأخذ عطلة مفتوحة، واستبدلوا بموسيقيين آخرين كان يختارهم نام جيل لكل حفلة. هؤلاء ما كانوا أطفالًا ولا هواة، كانوا موسيقيين حقيقيين؛ موسيقيين محترفين لديهم سمعتهم؛

مهندسي صوت عملوا في لوس أنجلس وفي نيويورك، وليس في قبو ذي عازل صوت في سينشون لا تتعدى إمكانياته ثمن كرتونة البيض.

لم تعد نابي تكتب أغانيها. حاولت أن تفرض ذلك، لكن نام جيل كان صعب المراس: «حبيبتي نابي»، قالها بصوت هادئ، إذ لم يرفع يومًا صوته في وجهها، بقي لطيفًا معها طوال الوقت يحدثها وهو يداعب شعرها كما لو أنها طفلة صغيرة وكما لو أنه أخوها الكبير وليس عشيقها. «أعرف ما هو الأفضل لك، انتهى زمن أغاني الأطفال. وحان الوقت لتحلقي عاليًا بعد أن أصبحت مغنية ذات قيمة، ستزورين العالم وتملئين الصالات في لندن ونيويورك وطوكيو، سيتبعك الكل وسيحبك الكل، لذلك حان الوقت لتثأري من الحياة، أنت التي كبرت بعيدًا عن أمك، وغنيت في الكنائس، وتعرضت للإساءة والذل، وهربت بعيدًا عن منزلك لتفادي المأساة».

شعرت هيانغ سو، وهو يحدثها بالدموع ستنفجر من عينيها وتسيل فوق جفنيها. فذلك الحزن الذي شعرت به لأول مرة كان يتجذّر في قلبها ويسدّ حلقها ويعقد معدتها. لكن صوت نام جيل الناعم كان قادرًا على اختراقها وفك عقدها، الواحدة تلو الأخرى، وتحريرها من الدموع المخزّنة في ذاكرتها، والتي ستفيض بين لحظة وأخرى فوق جفنيها.

ما قاله المصور كان حقيقة، فهيانغ سو لم يعد لديها وقت فراغ، كانت تُمضي أيامًا في التحضير لجولاتها الغنائية وفي تسجيل أسطواناتها وإجراء المقابلات على الراديو والظهور في البرامج

التلفزيونية. كما لم يعد في وسعها الإقامة بأي مكان كما في السابق. لذلك وجد لها شقة في مبنى ضخم لا يبعد كثيرًا عن النهر، واشترى لها بعض الأثاث، مرتبة وكنبات بلاستيكية وشاشة عملاقة. اختار لها ذلك المبنى، والطابق الثالث عشر، لتبقى بعيدة عن الناس، فهناك لا أحد يهتم بأحد، كما أن المدخل مزوّد برمز دخول، ولديه حارس عمل سابقًا في الشرطة، وكان قادرًا على ردع الدخلاء والمتطفلين. فنشأت علاقة صداقة بين الرجل ونابي، وصار يلقي عليها التحية بكل تهذيب عند دخولها المبنى وخروجها منه، وترد عليه هي بابتسامة ساحرة. شعرت نابي بالحرية المطلقة لأول مرة في حياتها، وبالسعادة الداخلية التي حققتها لها الموسيقى، إضافة إلى اهتمام المصور بها ورعايتها. صارت تشعر كأنها حيوان مدلل؛ دمية ناعمة وحالمة تمضي ساعات فوق المرتبة قبالة النافذة الكبيرة وتنظر إلى النهر الذي يلمع في البعيد. فكرت مرارًا في ماضيها وفي الأيام الغابرة التي أصبحت تحنّ وتشتاق إليها، وخصوصًا رفقة الشبان الثلاثة. فأخبارهم لم تكن تصلها دائمًا. كانوا أحيانًا ينتظرونها خارج الحفلة التي تحييها، على حافة الرصيف وسط جمهور مؤلف من فتيات صغيرات هستيريات يبدأن بالصراخ ما إن تطل عليهن. وحاولوا ذات مرة قول شيء لها لكن حرّاسها الشخصيين منعوهم ودفعوهم بعيدًا عنها، ثم أمسك المصور بذراعها وجرها إلى سيارة الليموزين المركونة عند الرصيف. ماذا أرادوا يا ترى؟ لم يكن لديها أدنى فكرة، لذلك شعرت بانقباض قلبها، كما لو كانوا مراسيل من حياتها السابقة سينقلون إليها خبرًا تجهله؛ كما لو أنهم أرادوا أن يحذّروها من خطر ما.

حدثت نام جيل عن الموضوع، لكنه بالطبع أبعد الفكرة نهائيًا عن رأسها في لفتة مفاجئة: «لا تفكري في الأمر يا نابي، لا تعطيهم أهمية، حتى أنهم يغارون من نجاحك ومن المال الذي تجنيه. يريدون أن يشاركوك في ذلك النجاح. عرفت أنهم يفكرون في توكيل محام ليطالبك بحقوقهم، لذلك أرجوك، توقفي عن غناء الأغاني القديمة، فهؤلاء جشعون ويريدون أن يستغلوك!» وهذا الأمر تسبب لها بحزن شديد، إذ لم تصدق أن الشبان الذين ساعدوها في البدء، وتصرفوا بلطف معها في السابق، قد غيَّرتهم السنوات إلى ذلك الحد. وشعرت مجددًا بالوحدة على الرغم من كل المعجبين الذين يتبعونها في جولاتها الغنائية، وكل المقابلات الصحافية وملاحقة المنتجين لها والهدايا والانتباه الذي أولاه إياها نام جيل. العلاقة الطبيعية الوحيدة التي كانت لديها هي مع الشرطي السابق الذي يحرس مبناها ويسكن في غرفة صغيرة تحت سلالمه. لم تسأله يومًا عن اسمه. وعلى الرغم من ذلك، فإنها كانت تنزل في أوقات فراغها لمحادثته، فيخبرها عن حياته السابقة بعد الحرب، وعن أمه التي عبرت النهر تحت القذائف وهي تحمله على ظهرها، ثم أبرز لها صورة كانت قد نُشرت عبر الإنترنت، التقطها عسكري أميركي لامرأة شابة تظهر كالشحاذة في ثيابها الرثة، وفي قدميها خرق بالية، وعلى ظهرها شال كبير يلفّ طفلًا صغيرًا جحظت عيناه من كثرة الجوع والخوف. وقد بدا رأسه في الصورة محلوقًا وأنفه متسخًا من المخاط، وفمه مسودًّا من الغبار. «هذا أنا برفقة أمي، كنا قد اجتزنا المتوازية الـ٣٨ ونحن في طريقنا إلى الجنوب». كما ظهر في الصورة شيء معلق بالرزم؛ كيس صغير

مثقوب احتجزت فيه الأم زوجًا من الحمام الزاجل، إلا أن الحارس لم يكلمها عنه.

وظهر خلف المرأة دمار تسببت به كل تلك القنابل. لكن نابي التي تعرَّفت إلى النهر الكبير، لم تكن واثقة بأن كلامه حقيقي، وأنه من يظهر فعلًا مع أمه في تلك الصورة، لكنها شعرت بالانزعاج. ولاحقًا عندما فكرت مليًّا في الأمر، اغرورقت عيناها بالدموع، فقد تذكرت أمها التي هربت للعيش مع رجل آخر وهي طفلة.

سمعت سالومي تلك الكلمات وشعرت بالانزعاج. فالقصة تشبه قصتها إلى حد ما، لأن أمها وأباها تركا لها جميع ممتلكاتهما وقررا الانتحار هربًا من مرض عضال، فأصابها هي، وها هي اليوم تنتظر الموت ولن يتأخر في الوصول.

دخل، بعد ذلك، فرد جديد حياة نابي. ذات يوم جاءها نام جيل مع فتاة في الثالثة والعشرين من العمر، تدعى كيم يو-مي، كان وجهها طويلًا، وشعرها أسود ينسدل حتى كليتيها، قدّمها إليها على أنها ملحقتها الصحافية. وظفها نام جيل لتجهز لها المقابلات الصحافية وتعتني بجدول أعمالها اليومي. كانت كيم يو-مي تتحدث ببطء وبخجل، وتبقى دائمًا على مسافة قريبة من نام جيل. في وقت قصير لم تعد نابي قادرة على الاستغناء عنها، وأصبحت الوحيدة التي تربطها بالآخرين. ثم باتت صديقتها، كانت تقضي معها معظم الوقت بين الحفلة الغنائية والأخرى، ترافقها إلى المطاعم وفي أثناء التسوق. لم تكن كثيرة الكلام، لكنها مستمعة جيدة. ثم بدأت بمناداتها دونغسينغ، كما لو أن نابي تكبرها فعلًا بكثير. لكن

نابي اعترضت: «إذا شئت، يمكنك أن تناديني أوني، لكنني لست معلمتك». ولتشجعها على ذلك، صارت تناديها يودونغسينغ، أو أختي الصغيرة، لكن كيم يو-مي لم تقدر إلا على الردّ بهيانغ سو شي. ثم تغير نمط حياة نابي، فتوقفت عن إمضاء ساعات في النظر عبر النافذة، وباتت تنتظر اتصالها لتخرجا معًا، تركبان سيارة الأجرة وتذهبان إلى المراكز التجارية، أو إلى الغداء في مكان معزول في مطاعم هونغداي الصغيرة أحيانًا. وتخرجان في المساء للاستمتاع بموسيقى الهيب هوب في الملاهي الليلية. علمت نابي في تلك الفترة بأن جدتها مريضة، بعد أن مرت سنوات على آخر لقاء بينهما. فالسيدة العجوز بقيت طوال الوقت غير راضية عن الحياة التي اختارتها هيونغ سو، وكانت كلما حاولت الشابة الاتصال بها، تطردها بجفاف. ثم علمت نابي من قريبة لها بأن الفضيحة طالت أخيرًا القس رندال، وكشف عن وجهه الحقيقي بعد أن تحرَّش بفتاة صغيرة تغني في الجوقة. لكن أهلها لم يقدموا شكوى ضده تفاديًا للفضيحة (طبعًا تحت الضغط الذي قامت به الكنيسة). وفي المقابل، أرسل ذلك البغيض إلى أفريقيا الغربية أو فيتنام، ولم يعد أحد يسمع به. أما زوجته صاحبة الردفين العريضين، فقد طلقته ووجدت زوجًا آخر لنفسها، فعاد كل شيء إلى سابق عهده بسرعة. شعرت هيانغ سو بمرارة كبيرة لتجاهلها واستبعادها كما لو أنها هي من ارتكبت الخطأ. وما إن بعثت إليها جدتها برسالة تطلب فيها رؤيتها، حتى لبت رغبتها على الفور. فدبر نام جيل وكيم يو-مي ذلك اللقاء. إلا أن الفتاة الشابة لم تعرف أنهما سيحوّلانه إلى حدث تغطيه وسائل

الإعلام. فحدث ذلك في حفلة غنائية نُظمت في الكنيسة أدت فيها نابي الأناشيد والتراتيل الدينية بحضور المصلين، وتحت أضواء الكاميرات التي اختيرت لذلك الحدث.

أُقيم الاحتفال في موسم الشتاء، ذات مساءً قريب من عيد الميلاد. كان الثلج حينها يغطي المدينة، وزينة العيد تشعّ في كل مكان، فزُينت الكنيسة بشجرة العيد وبالهدايا وكريات القطن التي عُلقت على النباتات داخل الصالة التي عجّت بالناس. صعدت نابي إلى المنصة نفسها التي كانت تقف عليها بفساتينها المستقيمة وببنطلون الجينز الممزَّق عند الركبتين وحذائها الرياضي. لكن هذه المرة اختار لها نام جيل فستانًا أحمر يلتصق بالجسم، وحذاءً أنيقًا بألوان الكونفيتي. لاحظت نابي المقعد الفارغ في الصف الأول، فتساءلت لمن يكون، وسرعان ما رأت جدتها تدخل بمساعدة امرأتين. كانت ترتدي ثيابًا سوداء وقد صفَّفت شعرها على شكل طاسة، وتبرَّجت لتخفي الشحوب في وجهها. تقدمت الجدة ببطء إلى مقعدها حيث جلست مستقيمة، وراحت تنظر إلى هيانغ سو بلا توقف كأنها نظرة وداع. لكن السيدة العجوز لم تُظهر أي عاطفة تجاهها، حتى إنها لم تتبسم. وبقيت نظرتها قاسية تخترق عيني حفيدتها. غنت نابي مثل السابق؛ وقفت شبه جامدة وظهرها محدودب، وبدأت بالغناء منفردة، ثم أمسك الموسيقيون بقيثاراتهم وبدأوا العزف، وعندما بدأت عازفة الطبل بالضرب على صندوقها، اشتعلت القاعة، وصار الحاضرون يرددون في الوقت نفسه كلمات النشيد: ها أنا أعبدك، ها أنا أنحني أمام عظمتك، ويصفقون ضمن الإيقاع مرافقين غناء

نابي. بعد ذلك، وفي إثر صمت طويل، اجتاحت حماسة الجمهور الصالة مثل الموجة العالية ما إن غنت نابي الأريانغ بصوتها الحادّ والجهوري.

هذا كل شيء، إذ إن اللقاء بين المرأتين على انفراد لم يتم، وقرار نام جيل كان قاطعًا: «عندما تُنهين الغناء، تنزلين عن المنصة وتغادرين فورًا عبر الباب الخلفي، ستكون يو-مي هناك لمساعدتك». ولا حاجة إلى التبرير، لأنه ما إن وصلت الأغنية إلى نهايتها حتى وقفت السيدة العجوز ونهضت عن مقعدها بمساعدة المرأتين، ومشت إلى المخرج من دون الالتفات ولو مرة إلى الخلف. «في حال رغبت في رؤيتك مجددًا أصبحت تعرف مكانك». الظاهر أن الجدة لم تسامح نابي، لأن اللقاء الذي حدث في موسم الميلاد كان الأخير. وفي شهر شباط/فبراير، علمت هيانغ سو عبر مكالمة هاتفية بموت جدتها في إثر نوبة دماغية. وتفاجأت بأنها لم تشعر حيال موتها سوى بفراغ صوتي كما لو أن صدى الاحتفال الذي أقيم في تلك الكنيسة بقي يتردد داخل رأسها إلى ذلك الحين.

اكتشفت هيانغ سو، في ذلك الشتاء، أن يو-مي، التي يُفترض أن تكون صديقتها ودعتها بـ«أختي الصغيرة»، أصبحت عشيقة ذلك المصور. كما عرفت من المصرف أن حساباتها قد أُفرغت ولم يبق فيها فلس واحد. حتى الشقة التي كانت تقيم بها لم يُدفع إيجارها منذ أشهر، لذلك قام المصرف، مالكها، بالإجراءات اللازمة لإفراغها. فكان عليها الانتقال منها في نهاية موسم الشتاء، في شهر

نيسان/إبريل بالتحديد. لم تجد مكانًا تذهب إليه، وذُعرت من فكرة التغيير ومن مواجهة الواقع بعد أن عاشت طوال السنوات الخمس الماضية مثل رجل آلي يقضي وقته بين أضواء المسارح والتمرينات مع الموسيقيين الذين لا يكفّون عن التجدد، والصمت الرهيب الذي يهيمن على الشقة وهي في انتظار وصول يو- مي التي باتت زياراتها، مع مرور الوقت، نادرة، وقد فهمت أخيرًا السبب. أما نام جيل، فقد بقي لطيفًا معها يوليها انتباهه إلى النهاية، وإن حدث ومارس الحب معها في الشقة الفارغة، كان يرحل بعد ذلك على عجلة من أمره، كما لو أنه على موعد عمل، أو كأنه عائد إلى زوجته. وذات مرة جاء للقائها وعلى خده خدش طويل نسبه إلى أظافر هر متوحش. لكن نابي فهمت أن يو- مي ختمت أثرها على وجنته ليعرف الكل بالحقيقة. بقي ذلك كله يدور في رأسها مثل منشار قديم، أو صدى حاد للغيرة والازدراء يسممها أكثر من قناني السوجو التي تشربها لتتمكن من النوم. بدأ مجد نابي يتلاشى، بعد فضيحة يو- مي ونام جيل، وكأن وسائل الإعلام تعبت من تغطية أخبارها، أو وجدت فتاة أصغر سنًّا، مغنية روك تظهر في عدسات المصوّرين، بالبنطلونات القصيرة والسترات اللماعة وتصبغ شعرها بالأحمر. تدعى آني، وهي صهباء (مثل بطلات الرسوم المتحركة)! فهيمن السكون على حياتها، ولم تعد تخرج من الشقة. كانت تبقى سارحة أمام النافذة، تحلم بأنها تطير إلى الجهة الثانية من الجبال؛ إلى البلد الذي أتى منه السيد شو وأمه منذ زمن بعيد؛ إلى حيث سيعود ذات يوم، بحسب قوله. بقي الشرطي يزورها مرة في اليوم، يجلب إليها الطعام، لا شيء

فاخرًا، بل جزء من فطوره في صحن معدني مزدوج القعر يحتوي على الأرز والكيمتشي وحساء النخاع وشريحة سمك مالحة. كان قد فهم أن نابي لا تريد الكلام، لذلك كان يضع الصحن أمام الباب ويقرع الجرس ويرحل. تلك كانت اللحظات الإنسانية الوحيدة التي عرفها في حياته.

وصلنا إلى النهاية. لقد عرفت ذلك حتى لو أنها تمنت العكس، إذ لم أكن قادرة على إعطائها المزيد. انحنت سالومي قليلًا إلى الأمام، فبرزت الأوتار في رقبتها، ولاحظت عند رقبتها خفقان الدم في شرايينها الوداجية.

«تابعي، أرجوك يا بِتنا. أَنهي هذه القصة كما أنهيت القصص الأخرى. أريد أن أعرف المزيد عن نابي، أحتاج إلى ذلك، هل تفهمين؟»

لم تكن المسألة مسألة نقود، فلو كنت قادرة على الرجوع في الزمن وإعادة أوراق الـ٥٠٠٠٠ النقدية إليها، وأنسى الابتسامة المتجهمة لتلك السيدة العجوز صاحبة الذهب، والتي اشترت لي كل طعامي ودفعت لي إيجاري خلال الأشهر الأخيرة، لفعلت ذلك من دون تردد.

«أرجوك، أرجوك»، رددت سالومي بصوتها الغبي المخنوق الطفولي المتمرّد، وهي تتأرجح بصعوبة ذهابًا وإيابًا، فشحبت أصابعها المتمسكة بالمسندين من كثرة الشدّ.

حدث الأمر في ساعات الفجر الأولى. فالفجر هو الوقت الأفظع للنفوس المتألمة لأنها تشعر في تلك الساعة، أي عندما ينسحب الليل ويعطي مكانه للنهار، بأنها لم تنعم بطعم الراحة في موعدها. مشت هيانغ سو حتى المطبخ الصغير في الاستوديو، أو ربما زحفت إلى

هناك وساقاها مطويَّتان تحتها بسبب الكحول والأدوية التي تمنعها من النهوض، أو لأنها ترفض رؤية انعكاسها في الزجاج أو في مرآة الخزانة الموضوعة في الصالون أو في شاشة التلفزيون السوداء. كانت تمسك بيدها ذلك الذي لم تفكر به من قبل؛ تعليقة حديدية من تلك التي نرسل بها الفساتين إلى المصبغة بعد أن نغلق جميع أزرار القبة. خدشت التعليقة أرض المطبخ مُحْدثة صوتًا مزعجًا. لا شك في أن جارة الطابق السفلي ستشتكي مجددًا، إذ لطالما اشتكت من الأصوات التي كانت تنهال عليها من فوق: كعوب أحذية؛ تلاطم صحون في حوض الجلي؛ أقدام كنبة تتزحزح كلما جلس أحدهم عليها بوحشية. جهدت نابي لترفع التعليقة عن الأرض لكن ذراعها كانت فاقدة للقوة، فسقط الحديد منها على الأرض مَحْدثًا مزيدًا من الضجة. قيل إننا في ساعة الموت لا نشعر بالألم، بل بشيء يشبه مرور العسل في الحلق، وهو مسكّر مثل الندى العطِر الذي يملأ الصدر، أما الباب الذي يُفتح في الدماغ فيشبه المدخل إلى الجنة. ثم تخرج الروح من الجسد عبر مسام البشرة والعينين والأذنين والشعر وفُتحتي الأنف، وتطير في الهواء، تسافر فوق أمواج البحر وعبر سهول عيدان القصب وفوق أوراق «اللوتس» وسط الغيوم الخفيفة مثل التنانين، إلى أن تلتقي مجسَّمًا تتحد به؛ أيّ مجسَّم حي؛ نبتة؛ شجرة؛ يعسوب؛ أو حتى هر.

«آه؛ فهمت، هي الهرة كيتي التي كانت تزور صالون التجميل!» ها هي سالومي تعود طفلة صغيرة، وقد انشرح وجهها بعد أن ابتسمت، لعله الألم الذي تخدّر للحظة داخل جسمها.

لا أدري لما سعادتها تسبب لي كثيرًا من الألم. وقفت فجأة لأضع حدًّا لتلك الكذبة المثالية.

لا، يا سالومي. الموت حقيقة مرة. فبعد مرور أيام، وجد السيد شو أن الأطباق التي كان يتركها أمام الباب لم تُلمَس، وقد بدأت تجذب الحشرات، كما أنه أخذ بشمّ برائحة كريهة جعلته يدرك حقيقة ما. فاستخدم مفتاحه الذي يفتح كل الأبواب ليتمكن من دخول الشقة بعد أن انتابه قلق شديد. تابع تقدمه في الشقة الغارقة في السكون كأنه لا يزال شرطيًّا، إلى أن رأى جثة نابي معلقة بمقبض شباك المطبخ. لقد لُفت عنقها بحبل من الحديد الرفيع فغرز في جلدها. أنزل السيد شو الجثة على مهل، وقد بردت ويبست لمرور الوقت، ثم مدَّدها على أرض المطبخ وتمتم بصوت منخفض كما لو أنه خاف أن يوقظها من النوم: «لماذا؟ لماذا؟»

رحلت من دون أن أودع أحدًا، ومن دون أن أمرّ بمكتب السيدة وانغ. سأستعيد حريتي عما قريب، ولن أضطر إلى رواية المزيد من القصص. سأتمكن من العيش من أجل نفسي في هذه المدينة الكبيرة التي تحيا فقط بالحاضر وبالأحياء.

قصة التنينين التي رويتها لسالومي نهاية تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٦

بدأت حديثي في ذلك اليوم كالآتي «هذه قصة وليست قصة، في الوقت نفسه». فنظرت سالومي إليّ بعينين واسعتين محمومتين. «كيف يمكن لقصة ألا تكون قصة؟»

- «عندما تكون حقيقية؟» أجبت سالومي.

- صحيح، لأن الحقيقة إن لم نؤمن بها تتحول إلى كذبة. والكذبة إن أتقنا إخبارها ستبدو حقيقة.

- إذًا، ماذا يمكن أن تكون؟

- حسنًا، سأخبرك بذلك. لكن أولًا أريدك أن تعرفي أن شخصيات هذه القصة وهمية.

- أي أنهم من نسج خيالك؟

كنت أتمهل في الرد. أردتها أن تفهم أن لا شيء يأتي من الخيال وحده، حتى لو أنه لا يمكن أن يكون كل شيء واقعيًا. أردت أن يصبح ذلك مثل الهواء الذي يساعدها على العيش على الرغم من خفة وزنها، مثل أجواء أغنية بلا كلمات،

مثل نسيم يلفح وجهها ما إن يدخل عبر النافذة المفتوحة التي تطل على الطريق وباب المكتب الذي تجلس فيه السيدة وانغ.

«قلت لك إنني لا أتصور شيئًا، لذلك دعوت الشخصيتين بالتنينين، تنين الشمال وتنين الجنوب. كوني أكيدة من أنهما حقيقيان ولو أن أحدًا غير قادر على رؤيتهما. لن أحاول وصفهما لك لأنهما في الحقيقة خفيان مثل الغيمة، أو مثل انعكاس في وجه مياه البحر، أو ربما مثل قطرات المطر التي نسمعها ولا نراها».

- وما الذي يؤكد أنهما حقيقيان؟

- هما قديمان، أقدم مني ومنك. ولطالما كانا موجودين، قبل أن تُبنى المدينة أو حتى البلد. فما نحن سوى لحظة عابرة في هذا الكون مقارنة بهما، لأن التنينين النائمين يعيشان هنا منذ الأزل.

أغمضت سالومي عينيها وألقت برأسها على ظهر الكرسيّ المائل، ويداها مسطحتان فوق المسندين، واسترسلت في الأحلام كما تسترسل عادة في النوم.

«هـل تذكرين قصـة ناومي التـي وجدتها العجوز هانا عنـد عتبة بون باستور؟».

- طبعًا أذكرها، لم تُنهها بعدُ، أليس كذلك؟

- صحيح لم أُنهها. ما زلنا لم نبلغ النهاية.

- إذًا، أخبريني بما حدث، وما علاقتها بتنيني سيول؟»

لم تكن الأمور في البدء واضحةً بالنسبة إلي. انتبهت لاحقًا إلى أن كل هذه القصص يرتبط بعضها ببعض في مكان ما، مثل الأشخاص الذين يركبون المترو ويُقدَّر لهم أن يلتقوا ذات يوم في مكان ما في مدينة سيول.

«كانت ناومي قد كبرت وأصبحت مثيرة للاهتمام، ربما لأنها رُبيت بعيدة عن والديها الحقيقيين».

- «تمامًا مثلي»، تمتمت سالومي.

إلا أنها لم تنادِ هانا بماما يومًا على الرغم من كل الحب الذي كانت تكنّه لها. كانت لناومي نزواتها ونوبات يأسها مثل سائر الأطفال. لكن، بمرور الوقت لاحظت هانا أن لديها حسنة يفتقدها الآخرون. فناومي كانت ترى أمورًا لا يراها أحد. في تلك الفترة كانت هانا قد تركت العمل في بون باستور، فالمناوبات الليلية قد أتعبتها وخافت أن يلاحظوا اختطافها للطفلة. فالأطفال في ذلك الملجأ كانوا كثرًا، يصلون شهريًّا بالعشرات. لذلك كان يصعب على القيمين إيجاد عوائل لهم، وخصوصًا لمن يولد بإعاقة، أو فاقدًا البصر، أو مصابًا بالمهق، أو بمتلازمة داون. لهذا السبب لم يثر اختفاء ناومي من الملجأ قلقًا كبيرًا. وعندما استجوبتها الممرضات المناوبات في النهار عن تلك الحادثة أجابت من دون أن يرفّ لها جفن:

«بالطبع، تبنتها عائلة».

- ومتى حدث ذلك؟

- الأسبوع الماضي. كانت عائلة محترمة من الطبقة الحاكمة التي تعيش في نامسان. ووقع أفرادها أوراقًا رسمية وقدّموا هبة إلى بون باستور.

مسألة الهبة هي التي أسكتت الشكوك في الميتم. وعندما

تركتهم هانا غيرت عنوانها لتضمن ألا تلاحقَ وتُستجوب مرة ثانية. واضطرت، لتتمكن من تربية ناومي، إلى العمل طباخة في مطعم صغير قريب من حيها، يقع في الطابق السفلي لمبنى لا يبعد كثيرًا عن جونغنو. وذهبت ناومي إلى مدرسة الحي وتعلمت القراءة والكتابة والغناء. ثم تبين وهي تؤدي أغاني الأطفال أن صوتها جميل، فغنت بالإنكليزية. لكن الموهبة الخفية التي كانت تتمتع حقًا بها، ظهرت مصادفة يوم كانت تتنزه مع أمها في أعلى هضبة جونغنو. يومها أشارت بإصبعها إلى شجرة كبيرة معزولة في أسفل الجرف الصخري: «هناك امرأة تراقبنا». ففتحت هانا عينيها واسعتين «أين ذلك؟ لا أراها». لكن ناومي أصرّت:

«انظري هناك، تبدو جميلة بالأبيض! وهي تتبسم لي».

فنسبت هانا تلك الرؤية إلى خيال طفلة تعاني شعورًا بالوحدة.

ولم تخبر أحدًا عن ذلك.

ولتموّه عنها، سجلتها في درس غناء بعد المدرسة.

كانت الاثنتان مرة أخرى تمشيان في الشارع في طريق العودة من حصة الغناء، عندما تحدثت ناومي عن عصافير في السماء؛ سرب كبير يطير ويرسم دوائر في الفضاء، لم تسمع له زقزقة، إنما حفحفة ريش عند احتكاكه بالهواء. كانت حينها السماء صافية إلا أن هانا لم ترَ شيئًا من ذلك، ولا حتى طائرة مثلًا. ففهمت أن ناومي مختلفة عن الآخرين، وتتمتع بموهبة رؤية الأمور الخفية. فكرت في أنها قريبة من اللّه، وأرادت اصطحابها إلى معبد بونغوونسا، على ارتفاع قليل من

المدينة. وأقلتهما سيارة الأجرة إلى مدخل المعبد، في يوم مشمس من بداية فصل الشتاء، ثم تابعتا في الممرات مشيًا على الأقدام وسط الأشجار المتشحة بلون الصدأ. سجدت هانا عدة مرات أمام صور القديسين، وراحت ناومي تقلدها، وأشعلتا معًا عيدان البخور، ثم زرعتها في جرة كبيرة من الفخار، مليئة بالتراب، ومشتا بعد ذلك إلى نقطة توقف الحافلة للعودة إلى دونغ داي حيث تعيشان. «ماذا رأيت في المعبد؟» سألتها هانا لاحقًا. كانت قد تصورت أن ناومي ستحصل على بركة الرب فتتبدل وتُشحن بالسعادة. لكن ناومي لم تقل شيئًا سوى الشكوى من ألم في قدميها. لذلك فكرت هانا أنه قد لا يكون ذلك إلهها. ربما وُلدت من أم مسيحية، ففي النهاية هانا لا تعرف شيئًا عن عائلتها الحقيقية. لذلك اصطحبتها إلى كنيسة ميوونغدونغ وهي عبارة عن مبنى حجري كبير يقع داخل حي ينبض بالحياة وتحيط بها دُور سينما ومطاعم بيتزا ومقاهٍ. لم تحب ناومي ذلك المكان أيضًا، حتى إنها اشتكت منه:

«هذا المكان مظلم. لمَ الناس حزينون هكذا؟»

شعرت العجوز هانا بالحيرة. «إذا لم تكن بوذية ولا مسيحية، فماذا تكون؟». في يوم سبت، وهو عطلة نهاية الأسبوع، تجهزت هانا للقيام برحلة إلى الطرف الآخر من المدينة، إلى حي ووي-دونغ؛ حيث الشوارع الصغيرة تلتفّ حول محطة الباصات. في محل يشبه المرآب، ووقفت امرأة ضخمة مثل الرجال، ترقص وتدور فوق السيوف. كانت ترتدي عدة فساتين، تخلعها الواحد تلو الآخر، وهي تدور حول نفسها. وتنتعل حذاءً رياضيًّا أميركيًّا ضخمًا لونه أحمر

وأبيض، وتضع في معصميها أساور من نحاس تتلاطم بعضها ببعض. كانت العائلات قد سبقت هانا إلى تقديم قرابينها، قناني كحول، فواكه، سجائر ومغلّفات بيضاء مفتوحة جزئيًّا، تحتوي على نقود. فوضعت هانا قليلًا منها في مغلف، وأرادت من ناومي أن تقدمها إلى المرأة لتحصل على بركتها. لكن ناومي بقيت في الخلف. لم ترغب في إظهار نفسها، لذلك خبّأت وجهها في تنورة هانا.

«لا تخافي، هيا تقدَّمي وأَعطها المغلف!»

مرة أخرى رفضت ناومي الاقتراب. بقيت يدها الصغيرة ممسكة بالمغلف الذي أصبح مجعَّدًا، وهي ترفض التخلي عنه. وتابعت المرأة الدوران حول نفسها وهي تنظر عند كل لفة إلى ناومي بهيئة غاضبة أو ساخرة، وتنطق بكلمات غير مفهومة، وبصوت تارة جهوري وطورًا حاد، ثم تضرب على طبل صغير. أما الفساتين المرمية من حولها فعكست أشكالًا رائعة تحت نور شريط النيون. وسرعان ما أدركت هانا أن موقف ناومي من المرأة يُزعج المحتفلين بالمراسم، فهؤلاء حضروا إلى هذا المكن ليحصلوا على بركة تلك السيدة فينجح أولادهم في امتحانات الدخول إلى الجامعة الوطنية. لذلك بدأوا ينظرون إليهما بإحراج وأوشك الوضع على الانفجار، وهو ما اضطر الأم وابنتها إلى الانسحاب من ذلك المكان محنيَّتَي الرأس. في رحلة العودة بالمترو إلى دونغدو، شعرت العجوز هانا تحت أنظار ناومي الغاضبة بالذنب. «لمَ أتينا إلى تلك المرأة الشريرة؟» سألتها ناومي. لم تدرِ هانا بماذا تجيب.

فبدأت، عندئذ، أحاديث ناومي عن التنينين.

توقفت عن الكلام للحظة، فقالت سالومي بصوت حالم: «هل تعرفين أنني مولودة في سنة التنين؟»

وعلى الرغم من أنها لم تذكر لي عمرها، فإنني قمت بحساب بسيط، ثم قلت:

«لا بد من أنها سنة ١٩٧٧».

«١ شباط/فبراير ١٩٧٧».

إذًا، هي في التاسعة والثلاثين من عمرها، ووفق حسابات الكوريين في الأربعين. تجرأت، في تلك المرة، على طرح السؤال عليها:

«لِمَ سمّوك سالومي؟ هو اسم ساقطة أليس كذلك؟» لكنني قلتها بالإنكليزية *(bitch)*، فهو يلائم تمامًا شخصيتها.

غضبت سالومي وأسرعت إلى الرد: «لا، أنا من اخترته لنفسي. كل ما أردته في حياتي هو أن أكون راقصة». ويا لها من راقصة تلك السالومي التي لامها الرجال، كل الرجال باستثناء عمها. لقد غاروا من شهرتها مثلما غاروا من الصغيرة نابي. يبدو أن العالم لا يتمنى السعادة للمرأة، ولن يتوقف عن لعن الراقصات. واليوم الذي ستقطع فيه رؤوسهن آتٍ لا محال!» هذا محتم.

بقيت سالومي حالمة. كانت الساعة قد تقدمت في بعد ظهر ذلك اليوم، ونور الخريف اتخذ لون أوراق الجنكو التي تزين الجادة المجاورة لمبناها. فكرتُ في أكثر ما قد يرضي مسمعها، ربما قصة ألوان أو أشجار أو جبال تساعدها على الهرب بعيدًا من الجمود الذي يهيمن على شقتها، ويساعدها على التنفس.

تعوّدت ناومي التحديق في السماء، لذلك لم تعد تهتم بشيء آخر. كل يوم، كانت تشد بيد العجوز هانا لتخرجا إلى الشارع وتمشيا على طول القناة بعيدًا عن المباني. وهناك تنظر إلى الغيوم.

«ماذا ترين يا ناومي؟» سألت هانا.

ـ «شيء لا يتحرك»، أجابت ناومي. «شيء يشبه حيّتين كبيرتين تلتفان حول نفسيهما وتنتظران».

ـ «ماذا تنتظران؟» أصرت هانا على أن تعرف.

ـ «تنتظران النهار»، قالت ناومي ببساطة.

فراحت هانا تتساءل عن ذلك النهار وتلك الساعة، وما يمكن أن يشيرا إليه.

وبحثت بدورها في السماء بين المباني وهما تتقدمان نحو جسر ساميلجيو، لكنها لم ترَ شيئًا حتى عندما أغلقت جفنيها بقوة. وفي يوم أحدٍ ركبتا المترو على الخط الأزرق ونزلتا منه في محطة شونغمورا، وتابعتا الصعود إلى الجبل مشيًا على الأقدام. كان صوت الزيزان في غابات الصنوبر لا يزال مسموعًا حينها، إضافة إلى صوت آخر أكثر حدة يشبه زقزقة العصافير. شدت ناومي عندئذٍ على يد هانا وقالت: «رأيت التنينين. يبدو أنهما لا يحبان ضوضاء المدينة، لذلك يختبئان بعيدًا عن الأماكن المزدحمة بالناس والسيارات». وتابعتا المشي إلى أن بلغتا الطريق التي تقودهما إلى أعلى الجبل، وهي على مسافة بعيدة من التراموای. هناك جلستا على مقعد حجري، وبدأت هانا تقرأ لناومي نقوش لوحة يون دونغ-جو التذكارية. قرأت كلمات

الشاعر، وربما كانت تحفظها غيبًا، في ذكرى الحرب التي أودت بحياة جدها.

هذه نجمة للذكريات
وهذه نجمة للحب
وهذه نجمة للأحزان
وهذه أخرى للرغبة
وهذه نجمة للشعر
وهذه نجمة أخرى لأمي

أنصتت ناومي بإمعان، ثم قالت: «أحب الشعر عندما يتحدث عن النجوم».

منذ ذلك اليوم، لم تكف ناومي عن التحدث عن التنينين. إلا أنها لم تذكر شكلهما ولا المكان الذي أتيا منه. كانت تكتفي بقول أشياء غريبة، مثل: «في اليوم الذي سيستيقظ فيه التنينان..». أو «عندما سيحين الوقت سيعاود التنينان اللقاء..». وبما أنها لم تزل صغيرة، اعتقدت هانا أن ذلك نابع من مخيلتها. لذلك اشترت لها كتبًا مصورة عن التنانين. وروت لها في أحد الأيام قصة تنين البحر التي سمعتها في صغرها: «كان يا ما كان، في قديم الزمان، عجوز قروية تعيش قرب مدينة موكبو في جنوب كوريا. وكانت قد أصبحت وحيدة بعد أن توفي زوجها وولداها في الحرب. فعاشت من صناعة قوالب حلوى الأرز التي كانت تبيعها يوميًّا في سوق موكبو. ذات يوم، وهي في طريقها إلى المدينة، التقت نمرًا جائعًا أراد أن يفترسها، فرمته بقالب الحلوى وهمت بالركض. لكنها لم تقدر على الجري بسرعة، لذلك شعرت به وهو يقترب، فرمته بالقالب الثاني والثالث والرابع، وفي كل مرة كان النمر يلتهم قالب الحلوى ويتابع مطاردته لها. وصلت القروية أخيرًا إلى الشاطئ وقد نفدت منها قوالب الحلوى التي حضرتها، فلم تجد سوى التضرع إلى تنين البحر: «أيها التنين الكبير، ساعدني أرجوك، أنقذني من هذا الوحش!» وبالكاد

أطلقت صراخها حتى انشقت مياه البحر وخرج التنين من القعر، وقال للقروية: «هيا إلى الداخل، اهربي منه إلى الجهة الثانية». وهكذا كان. فحبس التنين المياه بعيدًا عن المرأة لتتمكن من العبور إلى الجزيرة، وأنقذ حياتها». فسألت ناومي: «كيف هو تنين البحر؟ أخبريني عنه». لكن هانا لم تعرف بما تجيبها، واكتفت بالقول: «هو مثل تنينيك، لم يرَه أحد سوى القروية على الرغم من أنه كان موجودًا فعلًا، وينام في قعر البحر».

اكتفت ناومي بذلك. كانت تعرف أن تنينيها يعيشان في الفضاء. وعلى الرغم من أنها لم ترهما بأم عينيها، فإنها كانت تشعر بوجودهما كما نشعر بنسيم الهواء الدافئ في فصل الصيف، وبالزوابع التي تجرف أوراق الجنكو الذهبية.

«عندما ستحين الساعة سيلتقيان مجددًا مثل التوأمين اللذين ينفصلان عند الولادة». ثم رمت برأسها إلى الخلف وهي لا تزال تجلس فوق المقعد في مقابل لوحة يون دونغ-جو التذكارية. «مَن كتب هذه الأبيات التذكارية رآهما بالتأكيد، لا أشك في ذلك». حتى هانا لم تشك في ذلك، لأنها أضافت: «هذا ما يحدث عند وقوع الحرب، أو عند وقوع مصيبة، يتحرك التنينان في نومهما ولا يستيقظان إلا في يوم الحساب». وفكرت في أنها تمزج بين الإنجيل وتعاليم بوذا وقصص قبل النوم التي روتها لها جدتها بعد أن انتهت الحرب».

رأيت ذلك المتربص من جديد.

أعتقد أنه لم يتوقف عن ملاحقتي يومًا. فهو محترف، لذلك لن تستوقفه بضع قطرات. لقد أخفقت في تقويمه. تعرفت إليه في المترو، فهو لا يشبه ذلك الذي رأيته في حي إل سورديدو. هذه المرة بدا لي أطول، وكان يرتدي بذلة أنيقة وينتعل حذاء جلديًّا أسود على الموضة، مروَّسًا بعض الشيء. واستبدل قبعة الصوف السخيفة التي كان يعتمرها في الصيف بقبعة زرقاء رمادية، فبدا مثل أولئك الذين يقصدون ميدان سباق الخيل، أو يرتادون المقاهي الراقية في فنادق جمسيل الفخمة.

ثم التقيته في جمسيل. كنت ذاهبة إلى مقابلة عمل داخل مبنى كله مكاتب، وكان العمل لمنصب مترجمة إلى اللغة الإنكليزية في شركة تأمين أو شركة وساطة، لست أدري. ذهبت بعد قراءتي إعلانًا ظهر في موقع *jobkorea*، قرأت فيه أجرًا مناسبًا. كنا في الفترة التي تسبق الامتحانات الجامعية، وقد عاودت السأقطة إعطاء دروسها في اللغة الفرنسية، لذلك لم تعد بحاجة إلى خدماتي. كما أنني كنت قد توقفت عن رؤية سالومي لشهرين، فكنت في حاجة إلى المال لأدفع الإيجار. إذًا، الموعد في جمسيل كان عند التاسعة مساءً، فخلا الحي من الموظفين، الأمر الذي جعل المبنى يبدو كسفينة مضاءة فارغة من الركاب. تعرفت إلى ظلاله في الانعكاس

الزجاجي. كان يبعد عني بضعة صفوف ويحدق فيَّ بإمعان. أعتقد أنني لاحظت نظراته أولًا، شعرت بها في أعلى ظهري عند مؤخرة العنق، فأحسست بمياه باردة تنسكب على طول عمودي الفقري. كنا في المترو والعربة تعج بالناس، بعضهم ينزل وبعضهم يركب مع تغيير المحطات. وعندما بلغنا محطتي قررت ألا أتحرك حتى اللحظة الأخيرة؛ لحظة انغلاق الأبواب كما في الأفلام التي أشاهدها. فكرة ممتازة! رحت لاحقًا أمشي بسرعة في ممرات المحطة في اتجاه المخرج ٤ القريب من مدخل المبنى الذي أقصده. كنت أسمع خطاه خلفي على الرغم من كل الضوضاء والمسافة التي تفصل بيننا. كان يمشي على إيقاعي، ونعل حذائه البلاستيكي الجديد يدويّ في الممرات، كما في الأفلام أيضًا، فشعرت بقلبي ينبض بأقصى سرعة، وبعرقي يتصبّب على الرغم من تيارات الهواء الباردة في الداخل. فجأة وجدت نفسي وحيدة في آخر الممر، وذلك الصوت لا يزال يدق على الأرض. فكرت في الركض، لكنه على الأرجح أسرع مني، كما أنه سيدرك شعوري بوجوده وخوفي منه، وسيعتقد أنني تحت رحمته. ثم فكرت في الاختباء مثلًا في متجر المظلات والأحزمة، لكنه كان سيجدني، وينتظر حتى أخرج لأنني بالطبع لن أبقى مختبئة هناك طوال اليوم، فالمتجر لا تزيد مساحته على ثلاثة أمتار مربعة، وسرعان ما ستسألني المرأة: «إذًا، عمَّ تبحثين؟» لذلك بحثت عن بذلة رسمية، شرطي أو موظف في المواصلات أو جندي ربما لأطلب منه المساعدة. وبما أنني كنت في أمس الحاجة إليها، لم أجد بالطبع أحدًا يقدمها إليّ. لكن ماذا لو كان متواطئًا مع أحد؟ ماذا لو كان الشرطي متنكرًا، سيستغل الأمر ويجرني من معصمي وهو يهددني؟ فكرت عندئذ في الاتصال بأحد معارفي، لكنني لم أتذكر أي رقم. وهذا الأمر زاد شعوري بالوحدة. وإذ بي أتذكر سالومي، لكن يا لغبائي! ماذا يمكن لمسكينة مثلها أن تقوم به من أجلي؟ لا بد من أنني فكرت فيها فقط

مــن أجل القصة، كما لو أن حلها يمكــن أن يكون أهم من هذا الواقع. كانت ســتقول لي «وماذا جرى؟»

فأضطر إلى إيجاد حل يفسر كل شيء، نهاية مطمئنة؛ حنكة نهائية ستساعدني على النجاة، على البقاء حية. الغريب أن تفكيري بهذه الطريقة ساعدني على تخطي الخوف. كنت قادرة على تصور النهاية، وعلى رؤية نفسي أركض بساقين آليّتين مثل ذلك الرجل الذي ينتعل حذاءً أسود لماعًا ويعتمر قبعة صغيرة من جلد المافيريك. لذلك شعرت بأنني سيدة الموقف، وقادرة على تغييره أو إيقافه أو حله، مثل صورة تستحوذ حلمًا ثم يتلاشى تدريجيًّا تحت أشعة شمس الصباح. بالطبع، هذا ما أنا عليه الآن؛ أعيش حلمًا أنا بطلته، أرى نفسي فيه أتحرك وأمشي وأرجح ذراعي، وأضغط بحزام حقيبتي على خصري، وأحرك رأسي يمينًا ويسارًا لأرى انعكاس المتربص في الزجاج، ثم أعد خطواته: واحد اثنان، واحد اثنان، واحد اثنان، فأسرّع خطواتي وأسمع من جديد: واحد اثنان، واحد اثنان... ثلاثة. كنت مثل أولئك الصغار الذين يقفزون قفزة واحدة ليسرعوا في المشي، ثم أتبسم لما يخطر في بالي من أفكار. عندما وصلت إلى المخرج ٤ ترددت قليلًا. لمَ لا أذهب إلى الـ٦ وأعبر الجادة من هناك؟ فأنا قادرة على الركض بين السيارات واستغلال فوضى القيادة الليلية في جمسيل للهرب. لكن لا جدوى من ذلك، لأنه إن لم يحدث شيء اليوم فسيحدث غدًا أو بعد غد على الأكثر. ففي النهاية لقد قصدت أبعد مكان، الطرف الآخر من المدينة. جئت إلى أوريو-دونغ ولم يُفدني ذلك بشيء. أنا متأكدة من أنه لحق بي إلى هنا، وأنه مر تحت جسر بروكلين وأمام المطاعم التي تقدم لحم الخنزير. رآني أدخل المبنى وبقي منتظرًا على الرصيف إلى أن أشعلت النور في غرفتي، فأشعل سيجارة البهجة ودخنها من دون حراك. كنت أعتقد أنني أصبحت بعيدة عن كل ذلك، وأنني قطعت الوصال تمامًا معه، وأنني نجوت.

زال خوفي بالطبع، لكن غضبي على ما أعتقد حل مكانه، وهذا ما سرع دقات قلبي داخل صدري المنتفخ. كيف لي أن أكون بريئة إلى هذا الحد؟ وكأنني لم أفهم بعدُ المعنى الحقيقي للحياة؟ هل تحملت كل ما عشته من خبث ابنة عمتي وازدراء عمتي، ومن وحدة وفقر، فأكتفي بقليل من الأرزّ المجفف مع الكيمتشي الفاسد، ولا أشرب سوى من مياه الصنبور، لينتهي بي الأمر فريسة حيوان متوحش، يربطني في كيس أسود بلاستيكي ويقطعني أجزاء ثم يرميني في نهر هان؟ كل تلك الأفكار كانت تتزاحم داخل رأسي وأنا أصعد السلالم لأصل إلى الطريق، ولاحقًا وأنا أمشي على الرصيف بين المارة في اتجاه المبنى المشع الذي يشبه سفينة راسية عند رصيف.

أدركت فجأة أن المتربص لم يعد خلفي، إذ لم أعد أراه في المرايا الجانبية للسيارات المركونة على الطريق وفي زجاج المحالّ. ولم أعد أسمع خطواته في لغط الشارع وسط محركات السيارات وهدير الحافلات التي تنطلق على الطريق، والموسيقى المنبعثة من داخل البارات ومتاجر الإلكترونيات ومستحضرات التجميل ومكبرات الصوت، ونداء قارئات المستقبل المخادعات عند العتبات. كنت أعبر الطريق لاحقًا عندما اقتربت مني امرأة ترتدي ثوب ممرضة أو ربما ثوب عروس. اعتقدت أولًا أنها شابة، لكن ما إن دنت أكثر حتى لاحظت أن وجهها منخور ومليء بالتجاعيد، كما رأيت خصلها الرمادية تحت قلنسوتها، وكانت تضع قناع وقاية. عندما أصبحت أمامي صرخت شيئًا لم أفهمه، فتراجعت لأفسح المجال أمامها. وعلى الرغم من ذلك فإنها نظرت إليّ وصرخت مجددًا: إيدز! إيدز! (AIDS! AIDS!!) ثم تبين لي أن المشاه يتجنبونها كما لو أنها مصابة بالطاعون.

التفتُّ إليها، لا لأتبعها بنظري، فقد اتخذتها ذريعة لأتحقق من أن المتربص قد اختفى فعلًا. توقفت عندئذ لأتنفس الصعداء ولأفكر مليًّا: هل أخطأت؟ أم

أنه التقى شرطيًا فخاف من أن أكشف أمره؟ أم أن الوقت لم يحن بعد. ربما كان مثل تنيني السماء ينتظر أن يأتي ذلك اليوم، لأنه قرر ألا يخطو خطوته قبل أن يحين الوقت. لكن متى؟ متى سيقرر أن الوقت قد حان؟ ولمَ يفضل الغد على اليوم؟ ولمَ هنا في جمسيل، وليس في أوريو أو في شارع سالومي؟

وقفت أمام مدخل المبنى لا تفصل بيني وبين بابه الدوّار إلا بضع خطوات، فشعرت كأن شيئًا يستوقفني. في البدء لم أدرك ما حدث، ثم رأيت ذراعًا أُولى تحط فوق كتفي، وذراعًا ثانية قوية مثل غصن شجرة غليظ، فعجزت عن الصراخ أو الحركة. وبدأت ساقاي ترتجفان، وقلبي يدق بسرعة، حتى إنني عجزت عن التنفس. كان ورائي، وهو الذي استوقفني. سمعت صوته داخل أذني، لكنني لم أفهم ماذا قال. كانت كلماته لطيفة وهادئة. «لا تدخلي. هذا فخ، هناك من ينتظرك في الداخل وسيؤذيك». لكنني لم أرَ أحدًا أمام المبنى، ولا أحدًا في الداخل وراء الباب. كانت قاعة المدخل مظلمة، وبدت لمبات السقف عبر زجاج الباب الملوّن على شكل نجوم رباعية الشعاع. ثم رأيت باب المصعد الذي يُفترض بي أن أصعد به إلى الطابق الثاني عشر حيث ستجرى المقابلة. وتردد الصوت داخل أذني: «لا تدخلي. هذا كمين. أنت تخاطرين بحياتك». فنجحت في الإفلات من الذراع، وتمكنت من التحرر من عناقه، ودفعته بعيدًا عني، ثم قلت: «من أنت؟ وماذا تريد؟» فتراجع خطوتين إلى الخلف. كانت الشمس في وجهي، لذلك لم أتمكن من رؤية ملامحه، إلا أنني تعرفت إلى قبعته ومربعاتها وإلى بذلته. كان أقصر مما اعتقدت وأقل ضخامة. لم أفهم إذا كان يتبسم لي كما سبق وفعل، وأحسست برائحة السجائر والكحول تفوح منه، فاطمأن بالي. «كيف تعرف ذلك؟» لم أعد خائفة منه، ففي النهاية هو رجل مثل غيره، كما أن قبعته بدت لي سخيفة. «من أنت؟ وما اسمك؟»

لم يسارع إلى الإجابة، لكنه بقي يردد الجملة نفسها: «لا تدخلي. هذا المبنى.

هناك من ينتظرك في الداخل، أنت تخاطرين بحياتك». لم أقتنع، وصرخت: «أنت هو الخطر الحقيقي. تتعقّبني منذ أشهر. من أنت؟» أجاب حينها تلقائيًا: «هذه مهمتي. لقد استأجروني لأحميك». ثم أضاف جملته الشهيرة، قالها بنبرة صارمة بما أنني لم أشأ الفهم من المرة الأولى: «هناك من ينتظرك داخل المبنى، أحدهم يضمر لك شرًّا، سوف يقتلونك». كنت قريبة من الباب، لا أزال أنظر إليه، لكن القاعة الفارغة والمظلمة في الداخل تدفعني إلى الهرب. شعرت بأنني عاجزة عن الدخول. «من دفع لك؟ من طلب منك أن تحميني؟ لا أصدق ما تقول». فهمت لاحقًا. الشخص الوحيد القادر على القيام بذلك، والشخص الوحيد الذي يعرف كل شيء عني ويملك المال والنفوذ والخيال الواسع ليقوم بهذا، هو تلك المقعدة على الكرسيّ بالدواليب. لقد استغلت فريديريك باك ونظمت كل شيء وصممته من داخل صالونها الأصفر في الطرف الثاني من المدينة. بدا الأمر سخيفًا إلى درجة لم أمنع نفسي من الضحك أو السخرية. «إذًا، هيا اذهب وقدم إليها تقريرك. اذهب وقل لها ما حدث. اذهب وأخبرها بقصتك، كيف كنت تتعقبني في المترو، وكيف منعتني من الدخول إلى المقابلة، وكيف أنقذت حياتي!»

ثم درت في مكاني ورحلت من دون النظر إلى الخلف. مشيت في الجادة الكبيرة التي تقود إلى جمسيل، ومررت من دون أن أدرك أمام مدخل الكنيسة المسيحية. كان بابها ذو المصراعين الكبيرين مغلقًا، وتعلوه شارة نيون مشتعلة. بدأت نابي في هذه الكنيسة بالتحديد مسيرتَها الغنائية. أعتقد أن ذلك حدث منذ وقت بعيد، ما إن حطت في هذه المدينة الكبيرة التي تدعى سيول، عندما كنت أقصد بدوري مكتبة جونغنو تحت الأرض، وأتصفح الروايات البوليسية اليابانية، وخصوصًا الروايات القصيرة التي كتبتها الصينية ديان للشابات الساذجات القرويات في جميع أنحاء العالم؛ هناك حيث تعرفت إلى فريديريك

باك. لا بد من أن تكون سالومي قد استأجرت ذلك المتربص لأنقل إليها الخوف الذي يشعر به المرء عندما يدرك أنه ملاحَق من الغرباء. ثم فكرت في أنها فوتت على نفسها نهاية قصة القاتل المبتدئ بسبب ملاكها الحارس الذي منعني من الدخول إلى المكان الذي كان ينتظرني فيه القاتل. وهذا مؤسف!

بعد تلك الأحداث المشوقة قررت الانتقال مرة أخرى ورحلت عن أوريو-دونغ. لم أعد خائفة من ذلك المتربص، ولا أعرف إذا ما تابع العمل كملاك حارس. ربما أعفته سالومي من خدماته، لأن المتربص المكشوف هو متربص غير كفوء (ولا يفيد في شيء). كان ذلك بمثابة لعبة. عندما اقترب مني وحذرني من وجود خطر، أخل بالقواعد. ثم تلقيت اتصالات هاتفية من السيد باك، المدعو فريديريك، الذي اقترح أن نلتقي مجددًا. فالتقينا في مقهى لافازا كما في السابق، من جهة محطة أنجوك. ووجدت هناك سعادتي في غرفة مستقلة في الطابق الأول في منزل صغير، مالكته سيدة صينية تدعى لولو، وتعيش مع هِررها الثلاث. صرت أعود من الحصص في هونغداي وأجلس في المقهى أمام فنجان الكابوتشينو منتظرة السيد باك وأنا أدوّن على صفحة بيضاء في دفتر صغير كلَّ ما يخطر في بالي من أغانٍ وأشعار، وأحيانًا مسلَّمات. هكذا أحببت أن أدوّن أحلامي. وأصبح السيد باك ينقل إليّ من وقت إلى آخر أخبارَ سالومي، لكنها في الحقيقة لم تكن تدعى سالومي، بل كيم سي-ري. يتحدث السيد باك عنها بشكل جميل، إلى درجة جعلني أشك في أنه كان حبيبها قبل ٢٠ عامًا، أي عندما كان لا يزال في المدرسة. هذا ما تصورته، ولا يمكنني بالطبع أن أفاتحه بالموضوع.

«تراجعت صحتها كثيرًا»، قال فريديريك، «هي تنطفئ يومًا بعد يوم وتطلب رؤيتك. لكنك ترفضين تلقي رسائلها».

«وبم يعنيك الأمر؟» قلت ذلك بسخرية: «وهل أصبحت الآن مراسلها». فهز بكتفيه وقال: «لا يليق بك أن تكوني شريرة».

«وما أدراك بذلك؟ صحيح أن الإنسان لا يولد شريرًا، لكنه قادر على أن يصبح شريرًا». وهذه واحدة من المسلَّمات التي دوّنتها في دفتري.

قررت المقاومة، وأقسمت على ألا أقع بعد ذلك في فخ الآخرين. الجميع لديه مطالب، لذلك لن ينساني أحد. قبل أن أنتقل للعيش في غرفتي الجديدة. ضايقتني عمتي باتصالاتها المتكررة. يبدو أن ابنة عمتي، الحلوة بايك هوا هربت من المنزل، فشعرت العائلة بقلق شديد. لذلك كان عليّ أن أتحرك. خافوا من أن تفقد حياتها، والأسوأ من ذلك أن تفقد عفّتها. كما لو أنها لم تفقد شيئًا بعدُ من هذا القبيل. فعاودت الاتصال برقم عمتي لأشرح لها أنني لست على دراية بما تقوم به ابنتها، ومع من يمكن أن توجد، وأين يمكن أن تكون. لكن يبدو أن إجابتي لم تكن في مستوى توقعاتها، فلعنتني واتّهمتني بالأنانية والكذب والاستغلال بعد كل ما فعلته لي هي وابنتها يوم استقبلتاني في منزلهما في سيول عند وصولي من جويلا-دو، وأنا لا أزال جاهلة، ابنة صيادين لا تعرف سوى تقشير سمك المرلون. فقطعت عليها المكالمة ولم أعد أجيب على اتصالاتها. ولحق ذلك سلسلة رسائل، بعضها مدمع وبعضها مهدّد. حتى إنني خفت أن تطأ قدمها عتبة بابي، كأن تستقل المترو ذات يوم لغاية أوريو-دونغ، وبحنكتها المعتادة تستولي على المفاتيح فتسكن في غرفتي، وتستلقي على سريري بساقين مفتوحتين وعينين فاحمتين. وبدأت لهذا السبب أبحث عن سكن آخر، فبحثت في أبعد مكان ممكن.

لاحقًا غيرت خطّتها، فنجحت في جعل أمي تتصل بي لتسألني عن بايك هوا. كنا أنا وأمي نتهاتف مرة في الشهر على الأكثر؛ نتحدث، في بضع كلمات،

عن الطقس والعمل والهموم المالية. فكرت مرارًا في العودة إلى جيولا-دو، إذ شعرت مرارًا بألم في صدري وأنا أفكر في قريتي وفي شوارعها الفارغة، حيث لا شيء يذكر باستثناء معارك الكلاب والسكارى الذين يسقطون في حقول البطاطا الحلوة أيام السبت. لكنني كنت أشتاق إلى البحر، وكنت أحب التنزه عند الشاطئ في موكبو عندما تجادل أمي الصيادين في سعر سمك السيف والحبار. كنت أحب فيها رائحة البحر وصوت الهواء وإنارة قوارب الصيد في عرض البحر، كما لو أنها حيوانات ضخمة معلقة في السماء المظلمة.

«فكري فينا يا حبيبتي»، قالت أمي. «هذه ابنتك عمتك، ووحيدة أمها. هي من لحمنا ودمنا. لذلك لا يمكننا تجاهلها». ولأهدئها قلت لها إنني سأتولى الأمر.

«عندما أنتهي من امتحاناتي، يصبح لدي مزيد من الوقت».

لكنني كذبت. كنت واثقة بأنني لن أحرك ساكنًا من أجل بايك هوا. لم يكن أمام عمتي إلا أن تستأجر مفتشًا خاصًا، وإذا أرادت يمكنني أن أعطيها عنوان ذلك المتربص. لا أعرف إذا قلت هذا لأمي لتردده لعمتي، لكن ذلك حفر هوة كبيرة بيننا، وهكذا استعدت السلام. عرفت بعد ذلك أن بايك هوا عادت إلى المنزل وتلقت صفعة من والدها، وتوبيخًا من أمها. وسامحاها لاحقًا على فعلتها، ليعود كل شيء إلى سابق عهده. هكذا بتنا نخرج أجيالًا خارجة عن القانون؛ وفتيات ضالات. وهذه مسلَّمة أخرى.

فهمت أخيرًا ما يحدث في حياتي؛ إذ لم يسبق أن فكرت في الأمر من قبل. كان الأمر غريبًا لا يصدق. ولا أعرف إذا كان فعل الصدفة، أم نوعًا من أحلام اليقظة. وعندما أفكر فيه مجددًا أشعر كأن كل شيء كان مبرمَجًا لتتم هذه القصة، ولأكون رسولًا لإرادة عليا، إرادة إلهية، لذلك لن أبقى بعد اليوم على

حالي. هذه آخر قصة أرويها لسالومي قبل فوات الأوان. رغبت في تأليفها لتفهم أنها الشخص الوحيد الذي عنى لي في هذه الحياة، وعنى لي أكثر مما عنى لي والداي اللذان أنجباني، وفريديريك الذي لن يبلغ تلك الدرجة يومًا؛ هي الوحيدة بين ملايين الكائنات البشرية التي تعيش في سيول، في مختلف أحيائها ومبانيها وشوارعها وطرقاتها وجسورها وأنفاق المترو، وفي نهر هان الكبير الذي شهد على مختلف الحروب والجرائم، وعايش كل أنواع الشغف عند ضفافه ومياهه الخضراء والصفراء، التي تجري بلا توقف وتصب في البحر وتمتزج بمياه المحيط المالحة، لكنها لا تعود أبدًا.

سالومي تعبر جسر
قوس القزح داخل مستشفى سيفيرانس
نيسان/إبريل ٢٠١٧

هذه القصة واقعية. القصة الواقعية الوحيدة التي أرويها هنا. هذا لا يعني أن سائر القصص التي رويتها لسالومي، حتى تنسى وجعها، كانت وهمية. فقد عدّلت فيها قليلًا لتنال إعجابها. أضفت إليها بضع كلمات عذبة، وأخرى قارصة لتفهم حال الدنيا وتدرك واقع ذلك العالم الغريب عنها؛ العالم الذي يتحرك؛ حيث نحسّ بحرارة الشمس وبرودة الهواء، ونحس بالمطر والثلج في الشتاء؛ العالم الوحشي والأناني الذي أهملها ولن يشعر بغيابها بعد أن ترحل.

في ساعة مبكرة من صباح يوم أحد، نزلت ناوُمي من شقة أمها الواقعة في الطابق الثاني عشر من المبنى ب في مجمع جونغنو. المبنى محاط بحديقة تملأها الأشجار. فلمحت عند شجرة مانيوليا مكتظة بالأوراق كتلة ريش أسمر صغيرة ترتعش قرب جذعها المغطى بالثلج. دنت منها، وإذ بعصفور نائم يفتح منقاره ويصيح «بياك - بياك». قرفصت ناوُمي لتحدق فيه عن قرب وهي تحاكيه: «عجبًا، ماذا أصابك؟ هل أضعت الطريق؟» فعاود العصفور صياحه

الحاد «بياك - بياك»، وبدأ يرفرف بجناحيه ويهزّ بريشه الأشعث. بقيت ناوُمي بضع ثوان من دون حراك، ولما نوت الرحيل تحرك العصفور ليلحق بها ويختبئ بين قدميها. وصار يرفع رأسه ويحرك جناحيه ويصيح «بياك» كأنه يقول لها «خذيني معك!» فكرت ناوُمي في أنها لو تخلت عنه فستأتي قطط الحي وتلتهمه في لقمة. فحملته بين كفيها، وهو استسلم لها حتى إنه تشبث بأصابعها كما لو أنها غصن رفيع، وبدأ يغرس أظافره في جلدها. عادت ناوُمي إلى الشقة. وفي غياب أمها. لم تعرف أين تتركه. وضعته على منشفة في الحمام وملأت كوب فراشي الأسنان بالماء لتقدمهُ إليه، لكنه عجز عن الشرب منه، فوضعت قليلًا من الماء في باطن يدها ونجحت عندئذ في إروائه. لا بد من أن وقتًا طويلًا قد مر على سقوطه عن الشجرة، إذ كان يشعر بكثير من العطش والجوع. وسط أجواء الشقة الدافئة، بدا العصفور أكثر نشاطًا، فقد نفض بريشه ورفرف بجناحيه، وهو ما جعل ناوُمي تنتبه للّون المذهل في جناحيه؛ أزرق ساطع مع بعض السواد عند الأطراف. وهذا حتمًا أجمل ما رأته عيناها. انتظرت عودة العجوز هانا إلى المنزل. وعندما رأت هذه الأخيرة العصفور صرخت: «أبو زريق، عصفورك هذا أبو زريق. هو عصفور برارٍ ويدعونه أوه- تشي». لذلك أطلقت ناوُمي عليه اسم «أو جاي» كما لو كان من أصل أيرلندي. رجّحت هانا أن يموت العصفور على الفور، لأن الطيور التي تسقط من عشها هي تلك التي تتركها أمها من دون طعام. «وماذا يمكن أن نقدّم إلى «أو جي»؟» «هذا يأكل أي شيء، وخصوصًا الحشرات والديدان التي تختبئ في أشجار

الغابات». لحسن حظه كانت العجوز هانا ابنة بحر، لذلك كانت تعرف أين يباع الطُعم الذي يُستخدم في أثناء الصيد. فاصطحبت ناوُمي إلى سوق نامدييمون التي تقع قرب محطة القطار، حيث المتاجر الصغيرة تبيع ذلك الطُعم للخارجين في رحلة صيد، واشترتا كيسًا من الديدان. قدمت ناوُمي إلى «أو جي» أول وجبة بواسطة عيدان خشبية. كانت ما إن تضع الدودة أمام منقاره، حتى يلتهمها وهو يرتعش من البهجة، ثم يعاود فتح منقاره على وسعه ويطلق صياحه الحاد «بياك» طلبًا لدودة أخرى. كان الأسبوع الذي تلا مدهشًا، تناوبت خلاله هانا وناوُمي على إطعام «أو جي» ومحادثته وتنظيف روثه. وفي ذلك الأسبوع انتبهت ناوُمي إلى أن «أو جي» يحب أن يغيط على الورق، فأحضرت له هانا الجرائد القديمة وبعض الكتب المستعملة. حاولتا أن تعوّداه النوم في قفص، لكنه أبى ذلك. فما إن كانت تحتجزانه في الداخل، حتى يبدأ صياح الـ «بياك» الأكثر إحباطًا، فتُسرع ناوُمي إلى حمله بين كفيها، وهو كان يتمسك بها ويلحق بها أينما تذهب، إلى المرحاض أو إلى حوض الاستحمام. ففسرت هانا ذلك: «أنت أول من رآه بعد سقوطه عن الشجرة، لذلك يعتقد أنك أمه».

عندما كانت هانا تخرج إلى العمل، كانت تترك «أو جي» على غصن شجرة قطعته من الحديقة ولصقته عند المرحاض. وما إن تعود ناوُمي من المدرسة حتى تُسرع إليه بشوق وحماسة، ويستقبلها هو بصراخه الحاد: «ماما، أنا جائع!» مرفرفًا بجناحيه الأزرقين المدهشين. ثم يحين وقت وجبة الديدان وموعد شربه الماء من

باطن كفها. كانت لاحقًا تتمدَّد فوق الأرض وتضعه على صدرها ليشعر بدفئها. «اسمع دقات قلبي». كانت تعرف أن لا شيء أحب إلى قلب الصغار أكثر من سماع دقات قلوب أمهاتهم. و«أو جي» اختارها أمًّا له، لذلك كان في حاجة إلى الشعور بالاطمئنان.

غرفة المستشفى عكس الشقة تمامًا، بياضها ناصع ونافذتها واسعة تُدخل وهجًا بالكاد تظلله الستائر البلاستيكية. كانت سالومي ممدَّدة فوق السرير، جذعها الأعلى مقيَّد بأسطوانة حديدية تضخ لها الأكسيجين ثم تزفره. كنت قادرة فقط على رؤية ساقيها النحيفتين وقدميها ووجهها الهزيل، وكانت الهالات السوداء قد ظهرت حول عينيها، أما شعرها فكان مثبتًا إلى الخلف بالدبابيس. وعلى الرغم من تدهور حالها، فإنها بقيت محافظة على ملامحها المتناسقة، فبدت لي مثل السنونو في لوحة روسيتي. وشبهتها أيضًا لـ«أوفيليا» في لوحة جون إيفريت ميلاي، وهي ممدَّدة هكذا على ظهرها مغمضة العينين، وقد نحَف المرض شفتيها وزينهما بابتسامة شاحبة. أحب «أوفيليا» كثيرًا. كنت، وأنا في الثانية عشرة من عمري، قد علقت صورتها على حائط غرفتي في جيولا-دو. عندما بدأت أحدث سالومي عن ناوُميَ، حركت جفنيها كما لو أنها تعلمني بأنها تسمعني، وبأنها كانت في انتظاري. سبق لفريديريك أن حذرني: «إذا لم تزوريها على الفور فقد لا تلحقين بها». لكنني لم أذهب إليها لذلك السبب، لا، إنما إحياءً لذكرى العصفور الذي احتضنته وأنا طفلة، لكن ذكراه امَّحت بمرور الوقت. رغبت في أن أشارك سالومي في تلك الذكريات، لا لأنها عزيزة على قلبي مثلما كان ذلك الحيوان الذي رعيته حتى النهاية، وإنما بسبب تلك القصة الشائعة بين الأحياء؛ قصة اللحظة الأكثر غموضًا في هذه الدنيا، مثلها مثل لحظة الولادة.

عاشت ناوُمي قصة حب مع «أو جاي» طوال أسابيع. كانت ما إن تعود من المدرسة، حتى تسرع إلى الحمَام فيستقبلها العصفور بصياحه الحاد. مع الوقت لم يعد يعني به فقط «ماما أنا جائع»، بل أصبح أيضًا يعكس فرحته بلقائها بعد فراق النهار وانتظارها وسط عتمة المساحة الضيقة. وكانت ناوُمي تحمله بين يديها ثم تضعه على كتفها، فينقدها في أذنها ويعضها في شعرها. ولاحقًا، يحين موعد الطعام؛ ديدان الطحين وطُعم السمك. كانت تضعها ناوُمي في منقاره بواسطة العيدان الخشبية وهي تصدر أصواتًا مثل «آآآآآ» حتى يفتح منقاره واسعًا، كما تفعل الأمهات وهن يُدخلن ملعقة الطعام في أفواه صغارهن. وذات يوم لفت شيء انتباهها فلاحظت وهي تقدم إليه الطعام كرة بيضاء في أسفل منقاره. حدّثت هانا عنها وقررتا عرض «أو جاي» على طبيب في جامعة سيول الوطنية التي تضم قسمًا خاصًا بالحيوانات البرية. كانت يو-مي صديقة هانا التي تعمل في قسم الصيانة داخل المستشفى، مَن حصل لهما على موعد. وجاء التشخيص قاسيًا. كان «أو جاي» يعاني فيروسًا مميتًا يصيب الحيوانات البرية، يبدأ بتشويه منقار أحدها ليسد لاحقًا قصبته الهوائية. لقد حكم عليه بالموت. اقترح الطبيب البيطري القتل الرحيم ليجنب «أو جاي» العذاب ويمنع انتقال العدوى إلى سائر الطيور. لكن ناوُمي رفضت إعدام عصفورها، فعادت باكية إلى المنزل على الرغم من كلمات أمها المهدئة: «عليك تقبُّل الأمر، هذا الحل هو الأنسب له، ولك أيضًا، لا يمكننا الاعتراض على المشيئة الإلهية». لكن، كيف ستنجح في التخلي عن «أو جاي»

الذي أحبها ووضع كامل ثقته بها، وتبعها في كل مكان، وتغذى على يدها، وغنى لها، وتباهى بجناحيه وبريشه الأزرق أمامها. لم تكن ناوُمي تصلي من قبلُ، وها هي اليوم تتضرَّع لجميع القديسين والأرواح التي زارتها في المنام ليساعدوا «أو جاي» المسكين على الشفاء. منذ ذلك اليوم أصبحت كل لحظة من حياة «أو جاي» لحظةَ هروب من القدر، وكل يوم يمر أو كل ساعة تنقضي باتت انتصارًا على المرض. وباتت كل لقمة تعززه بالقوة وكل دقة قلب في صدر ناوُمي تنعش قلبه الصغير المختبئ وراء وبره الأشعث، والذي تشعر به ناوُمي كل مرة تحمله بين كفيها. أرادت ناومي أن تصرف انتباه «أو جاي» عن موضوع مرضه، فحصلت له على أسطوانة مدمجة سُجلت عليها زقزقة عصافير، وشغلتها داخل كمبيوتر والدتها. كما بحثت في الإنترنت عن كل زقزقات «أبو زريق» وشغلتها له. فبدا لها كأن «أو جاي» كان يستمتع بالموسيقى، إذ كان يفتح عينيه على اتساعهما ما إن تبدأ. وكانت قبل أن تخلد إلى النوم تضعه على الغصن قرب فراشها لتبقى على السمع، وتكون جاهزة في حال وقوع أي مكروه. لكنها لم تكن تغفو ليلًا. كانت تُمضي الوقت وهي تفكر في كل ما يمكن لـ«أو جاي» أن يستمتع به إذا عاش طويلًا: الهواء في السماء، والبساط الأخضر في حقول الأرز والجبال والبراري، ورائحة الصنوبر تحت أشعة الشمس عندما سيصطاد الديدان من قلْف الأشجار بعد أن تعلّمه الصيد. «لا تَمُتْ، أرجوك»، تمتمت ناوُمي وكأنها تصلي، «ما زال أمامك الكثير لتراه. سبق أن نجوت من الخطر عندما أنقذتك من السقوط، فلا تَمُتِ الآن!»

سمعت سالومي قصتي، كلمةً كلمة. عرفت من جفنيها أنها أحبّتها، فأحيانًا كانت تشقهما قليلًا لتلمع دمعة فوق قزحيتيها السوداوين. ذات مرة، كنت أجلس على الكرسي الحديدي قرب السرير، عندما قالت لي طبيبتها، وهي آنسة من سن سالومي، وربما لهذا السبب كانت تشعر بالشفقة عليها وهي في مرحلة مرضها النهائية: «أعتقد أنها فقدت كامل قدرتها على الإدراك بسبب الأدوية التي تخفف الألم. ومع ذلك، حدّثيها لأنها تسمعك وإن بدت لك نائمة، ثقي بأنها تسمعك». كنت الوحيدة التي تزورها كل يوم، ربما لتفرغي من العمل وانتهاء موسم الامتحانات. لكنني لم أنجح في اختباراتي، لقد ضاعت سنة من عمري، وأعتقد أنني لن أجد المال لتعويضها، وسأضطر إلى الابتعاد عن سيول والعودة إلى الجنوب لأساعد أمي في العمل هناك. وأخبرني السيد باك، أو فريديريك، أو «عاشق شوبان»، بأنه سينتقل قريبًا للعيش في الولايات المتحدة، فقد قُبل طلب انتسابه إلى جامعة عريقة، تدعى جامعة «روتجر» وتُلفظ «روكرز»، لا أدري لماذا. لكنه لم يقترح عليّ موافاته، ففي كل الأحوال لن أقدر على ذلك، فقد قررت ألا أصبح أنا أيضًا عاهرته. بقيت سالومي خارج ذلك كله. لا بد من أنها الآن على جزيرة ما، بعيدًا عن ضوضاء المدينة وعواصفها، وصوتي هو الخيط الوحيد الذي يربطها بنا.

خسر «أو جاي» قوته تدريجيًّا، فبعد أن كان يسرع إلى تناول الطعام ما إن تمد ناوُمي له العيدان الخشبية، أصبح يدير وجهه إلى الجهة الثانية. لكنه بقي يطلق صراخه الحاد «بياك!» بين الحين والحين. وفهمت ناوُمي أن ذلك الصياح لم يعد يشير إلى البهجة. أصبح فيه شيء من الغضب والخوف. استفهام بلا جواب. ولتخفف عنه، كانت تضمّه إليها وتنزل به إلى أسفل المبنى ليتنزها معًا بين

الأشجار العارية. فكرت في أنه قد يتعرف إلى المكان الذي وُلد فيه، ويتذكر أمه داخل العش. وكان «أو جاي»، ما إن يخرج من الشقة، حتى يبدأ بالارتجاف ويغمض عينيه ويلصق جسمه بعنق الفتاة. فالعالم أصبح واسعًا عليه، والسماء شديدة البياض، والهواء بات باردًا إلى درجة اختراق ريشه. لقد فقد قوته بالكامل حتى بات عاجزًا عن الإمساك بالأغصان التي تمدها له ناوُمي، أو أنه كان يخاف من أن تتركه على إحداها وترحل. لم يبق شيء لم تفعله ناومي لإنقاذه. وكانت المساعِدة البيطرية قد قالت لها: «عاجلًا أم آجلًا، عليك أن تجلبيه إلى هنا لنساعده على الموت بلا عذاب. هو من سيطلب منك ذلك. سترين. وإذا كنت فعلًا تحبينه فعليك أن تقدمي إليه هذا المعروف». لم تعلّق هانا حينها على الموضوع. بقيت صامتة، تنظر إلى ناوُمي وهي تشدّ العصفور إلى صدرها وتتنهد. راحت تفكر كيف أن الحب يُخضع من يشعر به للاختبار. هذا تمامًا ما شعرت به هي عندما قررت الهروب بناوُمي من الحضانة. هو التزام لا يمكن للمرء أن يتراجع عنه، فما إن تفتح قلبك له حتى يُلزمك بنفسه حتى النهاية. لم تعد ناوُمي اليوم تترك «أو جاي» ليلًا على الغصن الملصق في الحمام. أصبحت تبقيه معها. تضعه على صدرها (فوق حفاض في حال أراد التغوّط) إلى أن يغفو. وتضعه لاحقًا ببطء على محطّه خوفًا من إيذائه في أثناء النوم. فيمر الوقت وهي تستمع إليه يتنفس. لم تفكر يومًا في أن حيوانًا صغيرًا مثل هذا قادر على إصدار صوت في أثناء تنفسه، وصياح حاد من وقت إلى آخر، وهمسٍ لطيف كما لو أنه في حلم. فكل دقيقةً من نومه كانت ثمينة بالنسبة إلى ناوُمي.

ولاحقًا تغط هي في نوم خفيف، وتستوطن نعاسَها أحلامٌ غريبة، فتحلم بجميع الكائنات التي التقتها منذ صغرها. بعضها كان رقيقًا، وبعضها الآخر مؤذٍ ومخيف. حلمت مرارًا بتنينين يعيشان في سماء سيول، كان حجماهما يغطيان المدينة بنهرها، وقد رأتهما يتحركان ببطء، الواحد قرب الآخر. حلمت أيضًا بأنها تطير مع «أو جاي». لقد عبرا الريف معًا، وحلّقا فوق البراري وحقول الأرز، وصولًا إلى الجزر الغائصة في البحر.

أرادت سالومي أن تتحرك هي أيضًا. لعل ظهرها المتقرّح قد آلمها، أو أنها شعرت بتشنجات في ساقيها. فدلكتهما بلطف كما كنت أدلك ساقَي جدتي سابقًا، فضغطت على أوتارهما وعضلاتهما المتصلبة. كنت أدفع بأصابعي الدم والنسيج اللمفاوي إلى الأعلى، هكذا ببطء. فأصدر جهاز التنفس أصواتًا مثل الأمواج المتكسرة فوق الصخور، وأصدر جهاز مراقبة القلب صفيرًا حادًّا. لم تتأخر الممرضة في الوصول. بدت لي شاحبة تحت القلنسوة التي تغطي شعرها الأسود الطويل الملفوف في أعلى رقبتها على شكل كعكة. غرست المحقنة في الأنبوب الموصول بعرق سالومي في يدها اليمنى، وأرسلت فيه ذلك السائل المركز الذي يخفي الألم. «ستنام على الفور حتى الصباح». ثم أغلقت شفرات الستارة فانبسط الشفق داخل الغرفة، في حين بقيت الممرات تشع تحت قضبان النيون. فوقفت ومشيت من دون إحداث ضجة نحو الباب.

في تلك الليلة حدثت ضجة. أفاقت ناوُمي من نومها. نهضت على الفور، فوجدت أن «أو جاي» سقط عن محطّه. كان مُلقًى في الحوض فوق المنشفة البيضاء وممدَّدًا على جنبه، إلا أن ريشه

المرتعش أشار إلى أنه لا يزال حيًّا. حملته ناوُمي برأفة بين كفيها، وضمته إلى قلبها، وهي تهمس إليه العبارات اللطيفة. لكنه بقي من دون حراك، رأسه متدلٍّ جانبًا وعيناه مغمضتان. وتذكرت ناوُمي دروس الإسعافات الأولية التي تلقتها في المدرسة وراحت تنفخ داخل فمه المفتوح جزئيًّا لعله يعاود التنفس. «استيقظ يا «أو جاي»، أرجوك!» وهذا ما حدث، استيقظ «أو جاي» بعد لحظة، فانشقّت عيناه ونظر إلى ناوُمي. لكن نظره بقي شاردًا. وشعرت هي بأنه يرتجف بين يديها كأنه أراد بسط جناحيه للتباهي بريشه الأزرق ونيل إعجابها مرة أخيرة، ثم صاح «بياك، بياك»، كان يتمنى لو تكون صرخته هذه صرخةَ فرح، لكنها كانت نابعة من عذاب، فهو يصارع عبثًا للبقاء حيًّا. «أو جاي... أو جاي»، وبقيت ناومي تنفخ في فمه وتدلك قلبه فوق وبره الناعم. فجأة تصلب العصفور ورمى برأسه إلى الخلف فاتحًا جناحيه بين يدي ناوُمي، وأسلم روحه.

لم تعد سالومي قادرة على سماعي، فالبارحة دخلت في غيبوبة. بقي جهاز التنفس يُصدر هدير الأمواج، شهيق - زفير، في نبرة عنيفة. وعندما فارقت الحياة لم تصرخ أو حتى تهمس بكلمة واحدة. كل ما حدث لها هو شحوب في الوجه. حاولت إنقاذها وأنا أتابع تدليك ساقيها وذراعيها وأنفخ فوق شفتيها. إلا أنها كانت قد أصبحت بعيدة، هناك فوق جسر قوس القزح برفقة «أو جاي». بقي جسمها ممدَّدًا فوق سرير المستشفى، وصدرها كان معلقًا بالآلة الهوائية، ومعصماها كانا موصولين بالأنابيب التي تضخ في عروقها الغيوم البيضاء التي تساعد على النسيان.

اعتقدت أن موتها لن يؤثر بي وأنه سيريحني ويحررني من تسلطها ومن أذاها. فجأة توقف حقدي عليها، وانقلب رأسًا على عقب، مثلما ينقلب أخطبوط والدي بعد أن يصطاده، هناك في جيولا ـ دو. قد تكون سالومي الشخص الوحيد الذي اهتم فعلًا بأمري في هذه المدينة، سيول، حيث لا يلتقي أحد أحدًا. لقد أرادت أن أعيش لها وحدها وأخبرها بما يحدث في الخارج. لقد استغلتني، وساعدتني في الوقت نفسه. لذلك دمعت عيناي عندما رحلت.

بقيت ناوُمي طوال الليل إلى جانب «أو جاي». ونزلت في الصباح الباكر، إلى الحديقة قبل أن تستيقظ أمها، وحفرت بيديها قبرًا في التراب قرب ساق المانيوليا، ثم مدَّدت جثة «أو جاي» على جنبها، ملقية الرأس إلى الخلف كما كان يفعل العصفور وهو ينتظر وجبته. لكنها لم تزرع ورودًا، ولم تتلُ صلاة، لأنها لم تعرف إلى من توجهها. كان الجميع لا يزالون نائمين بما فيهم التنينان في سماء سيول. هما أيضًا كانا نائمين، أحدهما في حضن الآخر. ذرفت ناوُمي دموعها فوق الأرض. فهذه التجربة ستغيرها إلى الأبد بعد أن أدركت حقيقة الموت والصعوبة التي تواجهها الروح وهي تصارع مع كل أعضاء الجسم للبقاء حية. كما فهمت معنى الصراخ والارتجاف والتصلب قبل الانطلاق في اتجاه الجسر حيث الألوان المدهشة. ما زالت ناوُمي تذكر «أو جاي» حتى اليوم. أصبحت قبل أن تذهب إلى المدرسة في الصباح، أو عندما تعود منها بعد الظهر، تتوقف عند المانيوليا تخبر «أو جاي» عن يومها وعما رأته من أمور مضحكة ومبكية. تحدثه عن الطقس والشمس والهواء والأزهار

التي بدأت تتفتح، والديدان التي تنزعج داخل الشجر باحثة عمن يلتهمها. كانت أحيانًا تسمع صوت حفيف رفرفة في السماء، وتسمع صياحات حادة، فتشعر بـ«أو جاي» قريبًا منها كأنه لن يتأخر في العودة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

أنا بِتنا، في التاسعة عشرة من عمري. أعيش وحيدة في هذه المدينة الكبيرة التي تدعى سيول، وأجول تحت سمائها من دون توقف. عرفت هنا كثيرين من الناس، وعشت كثيرًا من المغامرات. بعضها رُوي لي، وبعضها نُسج في خيالي، أو نتج من تجاربي. لم أذهب إلى مأتم سالومي، المولودة كيم سي-ري، كما أنني لست واثقة بحضور السيد فريديريك باك. فعائلة سالومي لا تحبه. أخبرني بأن أفرادها يصفونه بالاستغلالي، ويشبّهونه بذلك الطائر الأبيض والأسود الذي يسرق كل ما هو متاح له. مرافق مأجور للنساء. لا أعتقد أنهم يُخطئون تمامًا في حقه لأنه مثل كثيرين من الرجال، عندما يحصل على ما يرغب فيه يرحل من دون النظر إلى الخلف.

ها أنا أمشي تحت سماء سيول والغيوم تسبح فوقي ببطء. السماء تمطر فوق غانغنام، والشمس من جهة إينشيون تسطع متألقة. في حين يهطل مطر الشمال بغزارة فوق جبل بوخانسان. صحيح أنني وحيدة، لكنني حرة، وعلى وشك الانطلاق في مشوار العمر.

سيول - باريس - سيول
نيسان/إبريل - أيلول/سبتمبر ٢٠١٧

جان ماري غوستاف لو كليزيو

من مواليد مدينة نيس الفرنسية عام ١٩٤٠. حاز جائزة نوبل للآداب عام ٢٠٠٨، وكان قد حاز العديد من الجوائز الأدبية الأخرى. عمل أستاذاً في العديد من جامعات العالم. جذوره فرنسية وموريشيوسية وهو متزوج من مغربية، ما شكّل لديه مزيج ثقافات مختلفة لا تعترف بالحدود والحواجز، وهو أمر يظهر جليًّا في رواياته، وقد وسمه بلقب «كاتب الترحال». نتاج لو كليزيو الأدبي غزير، يتجاوز الأربعين كتابًا تُرجم معظمها إلى الكثير من اللغات.

telegram @soramnqraaa

بما أنّ القصص قد تؤخّر الموت وتؤجّله، عمدت بِتنا، الطالبة الكورية المفلسة، إلى اختراع قصص لسالومي، التي أقعدها مرض عضال.

الأولى تصارع الفقر والثانية تصارع الألم. فتهربان معًا إلى القصص اليومية أو الرائعة، وسرعان ما تختفي الحدود بين الواقع والخيال.

رواية تهبّ أساطيرها الحضرية على نهر «هان»، والشوارع المُشبَعة والأزقّة المُظلّلة.

هي سيول كما يراها لو كليزيو، بناسها وأماكنها. ويرصدها بعينين تشعّ منهما الألفة الحميمة، والاهتمام بالتفاصيل. قصة عن الحياة في المدينة، كأننا نعيشها اليوم. المدينة التي يعرفها عن ظهر قلب، والتي يُحبّها. يتقن لو كليزيو في هذه الرواية فنّ إرشاد القارئ عبر المدن، والتركيز على الناس، وشخصياتهم، وطباعهم، مع الأخذ في الاعتبار أن الناس هم في نهاية المطاف انعكاس للمدينة، وضوضائها، والطبيعة المُحيطة بها.

ISBN 978-6144-58-549-8

Avec le soutien du CNL Centre national du livre

الجناح، شارع زاهية سلمان،
مبنى مجموعة حسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥ -١١ بيروت - لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ٠٩٦١١ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ٠٩٦١١

publishing@all-prints.com
tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر